

عبد العزيز بن عبد الله  
أستاذ الحضارة والفن ( كلية الآداب )  
الأمين العام لمركز تنسيق التعريب في العالم العربي

# مطبّيات الحضارة المغربية

الطبعة الثالثة المطولة لكتاب مظاهر الحضارة المغربية  
( مقرر في السلك الجامعي ومدارس المعلمين )

## الجزء الثاني

حقوق الطبع محفوظة  
1963

تشر وتوزيع

دار الكتب العربية  
الرباط

القسم الأول:

المظهر الحضاري الاجتماعي

## الفصل الأول:

### المرأة المفرية

يعتقد المؤرخون أن جميع الأديان والامم قبل العرب ، ساءت الى المرأة فقد كان الاغريق يعتبرون النساء من المخلوقات المنحطة التي لا تصلح لغير دوام النسل وتدبير المنزل وكان جميع قدماء المشرعين يظهرن نفس القسوة على المرأة ومن ذلك قوانين الهندوس وكان الصينيون والروس والايطاليون والاسبان وقبلهم الرومان يحتقرون المرأة كما تدل على ذلك الامثال السائرة عندهم وتعتبر جميع الشرائع الهندوسية والاغريقية الرومانية والحديثة المرأة - كما يقول جوستاف لوبون - من فصيلة الاماء او الصبيان وقد انعقد ابان البعث النبوى مؤتمر فى بلاد الرومان تساءل هل للمرأة روح واجمع المؤتمرون على أن النساء أشياء لا روح لها تباع وتشترى ويتصرف فيهن الرجل كيف يشاء .

وتطورت الآراء فى أوربا حول المرأة حتى تبلورت خلال القرن الثامن عشر فى نظريات اوكست كونت الذى هو ابعد الفلاسفة عن فكرة الطبيعة الاباحية فى المرأة .

وما هو الوضع الذى أعطاه هذا العالم للمرأة فى فلسفته الايجابية التى كان لها اكبر الاثر فى تكييف نظريات عصره فى الميدان الاجتماعى ؟

يقول الفيلسوف : ان الرجل والمرأة يهدفان الى غايات متباينة فى الحياة فمرمى الرجل هو العمل وغاية المرأة الحب والحنان والواجب يدعو الرجل الى قيادة نشاط الامة بينما على المرأة الانصياع وبذل النصيحة والتأثير الاخلاقى والتهديب لانها تشخص الحب وترمز الى قوة العاطفة والقلب وتمثل روح التجانس والتقارب فقوى الجنسيز متكاملة واذا ما تناسقت هذه القوى فيما بينها فانها تتمخض عن السعادة المنزلية والوحدة العائلية .

وهذا النظام الذى يجعل المرأة خاضعة للرجل يسند اليها مهمة رائعة فى الحياة الخاصة بينما يحظر عليها التسرب الى الحياة العمومية ومن هنا انبثق الاحتجاج ضد اجوست كونت الذى أخذ عليه انصار حرية المرأة حصرها فى نطاق ضيق ولكن « الفيلسوف الايجابى » يرد على خصومه بأن انافة الرجل على المرأة هو ظاهرى فقط لان للمرأة تفوقا ناصعا على الرجل فى الميدان الاجتماعى لانها مجبولة على المرونة

الاجتماعية وهى عامل المحافظة والتوازن فى الهيكل الاجتماعى وحتى فى الزواج لا توجد مساواة بين الرجل والمرأة لان لهما حقوقا وواجبات مختلفة فالرجل قوام على البيت وهو الذى يعول المرأة كما يقول الفيلسوف العصرى لان المرأة يجب ان تجرد من هموم المادة فناموس التطور الحديث يقضى فى فلسفة كونط الايجابية بجعل الحياة النسوية منزلية يوما عن يوم وتجريدها أكثر ما يمكن من كل عمل خارجى لكفالة وجهتها العاطفية ويذهب هذا الفيلسوف الى حد حرمان المرأة من الارث بالمرءة نظرا لكون التكاليف المادية منوطة بالرجال وحدهم .

ثم جاء العالم بروديهون فذكر فى كتابه «العدالة» ان الرجل والمرأة غير متساويين وانهما متكاملان وبرهن على ان الرجل يتفوق على المرأة من ثلاث نواح : ماديا وفكريا وأديبا فالتفوق المادى ظاهر والتفوق الفكرى راجع لعجز المرأة عن تصور النسب بين الاشياء فهى قادرة على تصور الامور منفصلة بعضها عن بعض ومن هنا جاء انصرافها للروحيات والشعر لا للعلوم .

فللمرأة القدرة على الاحتذاء لا على الابتكار والخلق لهذا لم نراها فى مختلف مراحل التاريخ حققت اكتشافا علميا او اسست مدرسة ادبية او فنية وقد ذهبت مدام جورج سان الروائية الفرنسية الشهيرة الى حد القول بان « المرأة بليدة بالطبع » ولا شك ان هذا الحكم الصارم الذى صدر من امرأة ضد المرأة راجع الى الوضع الخاص الذى جعل المرأة فى نظر بروديهون محرومة من « روح الجمع والتأليف » عاجزة عن سبر غور الاشياء وادراك الروابط الدقيقة التى تجعل من جزئيات مختلفة كلاً متناسقا ووحدة مترابطة فهى تفهم كل فكرة على حدة ولكنها تتقاعس عن تصور الفكرة العامة فالرجل اقوى فكريا من المرأة بنسبة تسعة الى اربعة وخلقيا بنسبة ثلاثة الى اثنين ويمكن تلخيص هذه النسب والقول بان الرجل يفوق المرأة فى المجموع بنسبة سبعة وعشرين الى ثمانية .

والمرأة تفوق الرجل فى الجمال ومن هنا تقيده وتحدوه الى العدالة وميزة الجمال هذه هى التى تضى على مهمة المرأة الاجتماعية مغزاها الكامل .

والجمال هنا جسمانى وفكرى لان جثمان الرجل يتملى بجمال المرأة الظاهر بينما تتملى روحه بجمال روحها وروعة نفسيته التى هى مرآة للرجل فكثيرا ما تساند المرأة زوجها وتحول بينه وبين الانهيار ولا يتقبل الرجل نظام الزوجية الا بفضل مثالية المرأة .

أما ميشلى Michelet فانه استمد نظريته فى المرأة من الثورة الفرنسية وقد ذكر فى كتابه « المرأة » ان دور هذه فى الحياة هو اصفاء طابع السمو على كل شئ حولها فهى الشعر الذى يستمد منه الرجل شجاعته كما يستروح منه الطفل مثاليته وهى



الينبوع الخلقى فى العائلة كما أن الدين هو مثال الفضيلة فى المجتمع فالمرأة هى الطبيب الحق .

تلك نظريات فلسفية فى المرأة كان لها طبعاً تأثير كبير فى التطور النسوى فى أوروبا فى العصر الحديث مما جعل المرأة تتحرر فى جرمانيا مثلاً بفرض ثقة كاملة فى دورها الاجتماعى والتهذيبى وكذلك فى فرنسا حيث صرفت المرأة جهودها لاسترجاع مكانتها داخل المنزل ولشاطرة الرجل فى الحقل الأدبى الكتاب والتأليف .

ولكن تطور العلوم ساعد المرأة أكثر من دعوة الفلاسفة الى الانبثاق فخرجت المرأة فى أوروبا الى معترك الحياة لتكون طبيبة ومحامية وتاجرة وممثلة

وإذا كانت المرأة الأوروبية قد تحررت داخل اطار الاعراف فإن القوانين المتعلقة بها لم تتغير الا قليلاً فهى ما زالت سجين القانون لا سيما فى فرنسا حيث لا يطلق لها مثلاً كامل التصرف فى مالها كما عند المرأة المسلمة منذ أكثر من ثلاثة عشر قرناً وقد بدأت المرأة الفرنسية تتمتع ببعض الحقوق منذ 1907 .

فقد تمتعت المرأة العربية حتى قبل الاسلام بمركز اجتماعى لم تحظ به النساء فى كثير من أقطار أوروبا حتى فى العصور الحديثة وقد ذكر كوستاف ولوبون أن الاسلام كان ذا تأثير عظيم فى حال المرأة فى الشرق فهو قد رفع مستوى المرأة الاجتماعى خلافاً للمزاعم المكررة على غير هدى والقرآن قد منح المرأة حقوقاً اربية بأحسن مما فى أكثر قوانيننا الأوروبية .. وإذا اردنا ان نعلم درجة تأثير القرآن فى أمر النساء وجب أن ننظر اليهن ايام ازدهار حضارة العرب فقد ظهر مما قصه المؤرخون انه كان للمرأة من الشأن ما اتفق لأخواتها حديثاً فى أوروبا وذلك حين انتشار فروسية عرب الاندلس وظرفهم ( حضارة العرب ص 488 ) وقد لعبت المرأة المسلمة أدواراً فى منتهى الخطورة ايام كان منها النساء العالمات البارعات والشواعر الماهرات ممن ذاع صيتهن فى العصر العباسى فى المشرق وفى العصر الاموى فى الاندلس .

نعم ان المرأة المسلمة لم تحتفظ بهذا الوضع السامى الذى خولها الاسلام اياه مما جعل تطورها يتحجر أحياناً وقد أشار ابن رشد الى سوء وضع المرأة فى الشرق من عدم تمكينها من اظهار قواها كانها لم تخلق الا للولادة ، وارضاع الطفل .

ولعل الغريب فى النظريات الفلسفية هو ان ابن رشد هذا قد اعترف للمرأة بميزات سامية لم يعترف لها بها حتى أولئك الفلاسفة المحدثون الذين درسنا نظرياتهم وذلك حين أكد فى تعليقه على جمهورية افلاطون أنه لا يوجد اختلاف بين الرجال والنساء فى الطبع وانما هو اختلاف فى الكم اى ان طبيعة النساء تشبه طبيعة الرجال ولكنهن اضعف منهم فى الأعمال والدليل على ذلك مقدرتهن على القيام بجميع أعمال

الرجال كالحرب والفلسفة وغيرهما ولكنهن لا يبلغن فيها مبلغ الرجال .

صقلت الحياة العربية نفسية المرأة فجعلت منها شاعرة بارعة وخطيبة مفوهة وقد أحصيت من بين أبرع هؤلاء الشواعر نحو الثلاثين منهن اروي بنت عبد المطلب وأم الخير الخطيبة وأميمة ام تابط شرا والحارثية المشهورة بالحماس والفخر وحليمة الموصوفة بالحكمة وحميدة التي كانت كلما تزوجت برجل ورأت فيه عيبا تهجوه بالشعر حتى خشى لسانها العرب وسعدى التي تغنت بعشيقها وصفية ابنة مسافر التي تلونت في أساليب البلاغة وعمرة ذات الشعر الحكيم وراوية العرب وعمرة الخثعمية الحماسية وفاطمة الخثعمية الكاهنة وفاطمة الخزاعية التي لم يكن شعرها يخرج عن الحكم والامثال وناجية التي شاركت في الحروب وحرضت على القتال

وفي هذه المجموعة من الشواعر العربيات ألوان شتى تعطينا صورة عما بلغته المرأة في المجتمع العربي قبل الاسلام من مكانة في الادب والشعر في أدق جوانبه وأعرق فنونه .

وعندما جاء الاسلام انفسح الميدان أمام المرأة فشاركت الرجل في العلوم النقلية والعقلية وطرقت أبواب الشعر وابتكرت في الغناء وأصبحت كاتبة بارعة بينما كانت من قبل تقرض الشعر سليقة ذلك ان الاسلام لم يجد عند العرب سوى خمس نسوة يقرأن ويكتبن منهن حفصة بنت عمر ( البلاذري ص 458 )

وقد ترعرعت في أحضان الاسلام الآلاف من النساء اللواتي كرعن اصناف العلوم حتى نافسن الرجال وفرضن وجودهن وأصبحن أستاذات لكبار علماء عصرهن وقد ترجم ابن حجر في الاصابة 1543 امرأة كان من بينهن العالمات والفتيات واللغويات والمحدثات ( ج 4 من ص 424 الى ص 984 ) وخصص الامام النووي في تهذيب الاسماء والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد والسخاوي في الضوء اللامع حيزا كبيرا لترجمة النساء العالمات وقد ذكر السخاوي ان السيدة ملك سمعت معه على بعض مشايخه في القاهرة وسمع هو منها في دمشق وقد اتهم الذهبي اربعة آلاف من المحدثين ولكنه قال عن النساء المحدثات « ما علمت من النساء من اتهمت ولا من تركوها » ( ميزان الاعتدال ج 3 ص 395 ) وترجم السيوطي 37 شاعرة واقتطف نماذج رائعة من اشعارهن في كتابه المخطوط بالمكتبة الظاهرية بدمشق والموسوم ب « نزهة المجلساء في اشعار النساء » وتعلمذ الامام ابن عساكر الى احدى وثمانين امرأة أخذ عنهن العلم ( ياقوت ج 5 ص 140 والنعماني ج 1 ص 101 ) وقد أفرد المقرئ فصلا لنساء الاندلس وأخذ هو نفسه عن الكثيرات منهن كما تعلمذ عليهن ابن الاثير والحافظ الذهبي مؤرخ الاسلام .

وقد اشار الذهبي الى زينب بنت سليمان بن هبة الله وقد تعلمذ لها ( المشتبه في أسماء الرجال طبعة ليدن عام 1863 م ص 11 ) كما اشار الى عدة شيوخ أخذوا عن شهدة التي من طبقتها تجنى الوهبانية ( ص 69 ) ومن النسوان الاستاذات اللواتي

ذكرهن ست الأدب بنت مظفر بن البرنى روى عنها جلال الدين عبد الجبار بن عكبر (المشتبه ص 31) وتحية الرسبيبة شيخة مسلم بن ابراهيم (ص 71) وتقية الارمنازية الشعيرة وهى بديعة النظم ماتت فى حدود 580 هـ وتقيتان عالمتان أخريان (ص 74) وخبرة البلوية الشعيرة التابعة (ص 86) ورابعة الفرضية تلميذة الجوهري واختها فاطمة التى روت عن ابى جعفر بن المسلمة (ص 122) وشرف النساء بنت الابنوسى البغدادية (ص 125) وحيابة شيخة ابى سلمة التبوذكى (ص 139) وعالمات أخريات (ص 162 - 168 - 172)

واشار ابن القاضى الى ام هانىء بنت الهورى شيخة السيوطى (درة الحجال ص 82) وخديجة بنت محمد المقدسية تلميذة الزبيدى وابن صباح وخديجة بنت عبدالرحمن المقدسية تلميذة القزوينى والزبيدى (توفيت عام 701) وخديجة بنت المراتى سمعت من الزبيدى ثلاثيات البخارى وسمعت الفخر الاربلى (توفيت عام 999) وخديجة بنت يوسف ابن غنيمة البغدادية ولدت بدمشق وسمعت من ابى نصر الشيرازى (توفيت عام 699 هـ) (درة الحجال ص 141) وزينب الصالحية المسندة وزينب البغدادية المسندة الرحالة وزينب الحرانية ثلاثهن اخذ عنهن ابن رشيد السبتي عام 684 (ص 150) وشامية الصديقية الشيخة المسندة امة الحق سمعت من ابن حنبل الرصافى ومن جدها ابى الفتوح ذكرها ابن الزبير الاصغر فى مشيخته (ص 483) هدية المقدسية روت البخارى عن ابن الزبيدى سمع عنها جماعة توفيت عام 699 (ص 484) ام على هدية البغدادية سمعت من ابن الزبيدى وسمع عنها جماعة وكانت قابلة توفيت عام 712 هـ (ص 484) وزيرة ست الوزراء بنت عمر البخارى من ابن الزبيدى ومسند الشافعى وروتهما بالشام ومصر توفيت عام 722 هـ (ص 485)

وتعرض بابا السودانى الى رحمة بنت الجنان التى كانت تحفظ أحاديث كثيرة فى الصحاح وتحيط بحفظ الادعية الواردة وكثير من تفسير قصص القرآن واخباره (نيل الابتهاج ص 322) كما اشار الى ام هانىء العبدوسية التى قال عنها ابن غازى انها آخر فقهاءهم (نيل الابتهاج ص 382)

وقد تعرض صاحب فهرس الفهارس الى مشيخة النسوان (ج 2 ص 71) فراجعها وهناك عالمات أخريات منهن العالمة آمة اللطيف لها تصانيف (كتاب المدارس فى تاريخ المدارس لعبد القادر بن محمد النعيمى المتوفى سنة 927) (ص 112) وفاطمة بنت عبد الله بن أبى بكر ابن زيدة سمع عنها المعجم الكبير ابو الفتوح مسعود بن محمد بن على المصعبى الميمى (ميمة بلاد بأصبهان) (معجم البلدان باقوت ج 8 ص 228) وعائشة بنت الحسن بن ابراهيم الوركاني امرأة عالمة واعظة روت عن أبى عبد الله محمد بن اسحاق بن مندة روت عنها ام الرضى صوبنت احمد بن على الحبال وغيرها ماتت سنة 460 (معجم البلدان باقوت ج 8 ص 417) وزينب بنت الكمال سمع منها

بدمشق الامام العلامة ابراهيم الصفاقسى وهى من اهل القرن الثامن ( نيل الابتهاج لاحمد بابا ص 11 )

وكانت لمالك ابنة تحفظ علمه يعنى الموطا وكانت تقف خلف الباب فاذا غلظ القارىء نقرت الباب فيفطن فينظر مالك فيرد عليه ( المديباح لابن فرحون ص 25 )

وقدم نصيب مكة فأتى المسجد الحرام فجاءت ثلاث نسوة فجلسن قريبا منه وجعلن يتحدثن ويتذاكرن الشعر والشعراء ( معجم البلدان ياقوت ج 8 ص 39 )

ولابن وداعة الرندى تأليف جمع فيه أربعين حديثا عن أربعين امرأة من الصحابة ( المديباح لابن فرحون ص 58 )

وقد أحصى من ترجم للحافظ السيوطى عدد شيوخه من النساء فبلغن اثنتى عشرة شيخة

ولابى حيان النحوى كتاب فى ابنته نضار سماه « النضار فى المسلاة عن نضار » وذكر ابو حيان أنها خرجت جزءا لنفسها وانها تعرب جيدا وكان يقول دائما ليت أخاها كان مثلها توفيت عام 730 فى حياة والدها ( النفج ج 1 ص 613 )

وللحافظ ابن حجر « المشيخة الباسلة للقبابى وفاطمة » والقبابى هو المسند عبد الرحمن ابن عمر اللخمي المصرى المقدسى وفاطمة هى المسندة المعمرة بنت الشيخ صلاح الدين ابن ابى الفتح المقدسى وجمعهما لاشتراكهما فى المشائخ ( فهرس الفهارس ج 2 ص 59 )

وكانت بالاندلس شاعرة من اليهود اسمها قسونة بنت اسماعيل اليهودى وكان ابوها شاعرا واعتنى بتأديبها ربما صنع من الموشحة قسما فأتمتها هى بقسم آخر ( النفج ج 2 ص 950 )

ولما تكلم الشيخ فالح الظاهرى فى صحائف العامل على امامة المرأة ذكر أنه لو حضرت قريش الطبرية أو عائشة المقدسية أو كريمة المروزية وهن من النسوة المسندات اصل وراءهن غير مرتاب ولا متشكك ( ص 13 منه و ص 37 من أنجح المساعى له أيضا راجع فهرس الفهارس ج 2 ص 297 )

ولعل النساء المسلمات قد حققن موسوعة علمية لم يتأت لامة اخرى ان تحظى بها فى مختلف الاعصار والامصار وقد قال عروة فى عائشة الصديقية : « ما جالست أحدا قط أعلم بقضاء ولا بحديث الجاهلية ولا أروى للشعر ولا أعلم بفريضة ولا بطب من عائشة » وقد وفدت الصحابية ام الدرداء على بيت المقدس وكانت تعقد حلقات التدريس فيحضرها سليمان بن عبد الملك واخذ الامام الشافعى الحديث عن السيدة نفيسة وضمته حلقتها فى القاهرة وقامت بالصلاة عليه بعد موته وحكى ابن خلكان



• عروس حضرية •



(ج 2 ص 251) عن نفيسة هذه أنها كانت تلقى محاضرات يجلس للانصات اليها مشاهير العلماء وكانت عائشة الحنبلية احدى استاذات ابن حجر العسقلاني في الحديث وقد تتلمذ بن حجر لزينب بنت محمد بن عثمان الدمشقية المحدثة الفقيهة وكانت حلقة درسها لا تقل عن الخمسين طالبا للحديث كما تتلمذ ابن حجر ايضا لزينب بنت عثمان بن محمد التي كانت لها اليد الطولى في علوم السنة ولها رسائل في الفقه والحديث استند عليها كثير من العلماء وفي نفس العصر كانت فاطمة بنت المهدي زوجة لاحد العلماء وكان زوجها يرجع اليها فيما يشكل عليه فاذا ضايقه الطلبة استشارها وقد درس ابن خلكان على أم المؤيد وأخذت هي عن الزمخشري صاحب الكشف وذكر ابن العماد الحنبلي في شذراته عن أم الخير وتخصصها في علم الحديث « ان أهل الارض نزلوا درجة في العلم بموتها » وقد تتلمذ على عنيدة خمسمائة رجل وامرأة ( المجلة الاسيوية سنة 1930 ص 50) وقرأ الخطيب البغدادي صحيح البخاري على كريمة بنت احمد المروزي التي أسهمت بنصيب كبير في تكوينه ( ياقوت ج I ص 247 - صلة ابن بشكوال ج I ص 133 ) وهي حافظة من رواة البخاري ( كامل ابن الاثير ج 10 ص 26 ) وقد حدثت رقية حفيدة ابن مزرع بالاجازة عن شيوخ مصر والشام كابن سيد الناس المزني وألقت محاضرات في المدينة وهي من مشاهير المحدثين وأخذت ست الوزراء البخاري ومسند الشافعي عن الزبيدي وذكر الصفدي أنها كانت محدثة عصرها وروى عنها مشاهير العلماء وقد برعت عائشة بنت علي الدمشقية في النحو والصرف والبيان والمعرض والحديث وفتحت حلقة للتدريس وكانت عائشة المقدسية ( من حفدة ابن قدامة المقدسي ) سيدة المحدثين بدمشق سمعت البخاري على الحجار وروى عنها ابن حجر وقرأ عليها كتباً عديدة وأنفردت في آخر عمرها بعلم الحديث وكانت سهلة في تعليم العلوم لينة الجانب للتعليم وقد فاقت العروضية مولاة أبي المطرف بن غلبون هذا الاخير في النحو واللغة والعروض وكانت تحفظ كامل المبرد ونوادر القالي وتشرحهما وكانت فاطمة بنت الشيخ جمال الدين الدمشقي من المحدثات أجازها معظم علماء القرن السابع في الشام والعراق والحجاز وفارس والفقيهة فاطمة السمرقندية زوجة علاء الدين القاشاني ألقت المؤلفات العديدة في الفقه والحديث وانتشرت مصنفاتها بين العلماء وبلغت شهرة الدينورية بين علماء القرن الثاني عشر منزلة في اسناد الحديث لم يبلغها أحد حتى لقبت بمسندة العراق ولها رسائل عديدة في الحديث والفقه والتوحيد ولبنى الاندلسية العالة بالنحو والشعر والحساب وسائر العلوم .

وقد تولت عائلة زمانها فاطمة بنت قمريزان المتوفاة عام 966 مشيخة مدرسة الزجاجة ومدرسة العادلية وانتهت اليها الرياسة بحلب

أما الشواعر والادبيات والكاتبات اللواتي نبغن في الاسلام فهن كثيرات جدا منهن حسب حروف الهجاء أسماء العامرية التي مدحت عبد المومن ابن علي في قصيدة

طلبت منه رفع الضريبة عن دارها والحجز عن اموالها وأم العلاء الحجازية التي لها قصائد وموشحات ذكرها صاحب المغرب وأم الكرام ابنة المعتصم صاحب المرية صاحبة الموشحات وأمة العزيز الاندلسية التي ذكر جملة من شعرها ابن دحية في المطرب من اشعار المغرب وبثينة ابنة المعتمد وثقية ابنة ابي الفرج ذكرها الحافظ السلفي في تعليقه واخذت عنه العلم بالاسكندرية ونظمت القصائد الخمرية والحربية مبرهنه عن طول باع المرأة في كل ذلك وحفصة بنت حمدون الاندلسية وحمدة بنت زياد الملقبة بخنساء المغرب والشاعرة الشلبية التي كانت تجالس الملوك وتناظر الشعراء والتي وجهت الى يعقوب المنصور بقصيدة تنظم فيها من ولاية شلب وعائشة القرطبية التي كانت تمدح الملوك وترتجل الشعر ارتجالا وروى ابن جيان انها اعقل بنات عصرها وعائشة الباعونية صاحبة القصيدة البديعية التي نظمها على منبوال تقي الدين بن حجة والتي درست في الشام ومصر واجاز لها العلماء بالافتاء والتدريس ولها مؤلفات في الادب والفقه وديوان شعر وكانت تكاتب الادباء والحكام وتستفتى في المشاكل اللغوية والفقهية والادارية وتجتمع بالملوك فتجدهم اذانا مصيغة. وعائشة التيمورية وعليه بنت المهدي أخت الرشيد لها ديوان شعر وعمره ابنة الخنساء والشاعرة الغسانية من شواعر الاندلس الموصوفات في المائة الرابعة وفضل الشاعرة من مولدات البصرة ولبانة زوجة الامين بن هرون الرشيد وليلى الاخيلية ومهجة القرطبية صاحبة ولادة بنت المستكفي الشاعرة التي كانت تناضل الشعراء وتجادل الادباء وتفوق البرعاء وكانت زوجة الفرزدق أدبية نقادة يحتكم اليها شعراء العصر كما كانت مريم بنت ابي يعقوب الانصاري تعلم النساء الادب ..

ولا يخلو كتاب من كتب التراجم والادب من أمثلة حية لنشاط المرأة العربية في مختلف الميادين فهناك مصنفات في النساء المؤلفات في الاسلام وهنالك بلاغة النساء وهنالك الاماء الشاعرات وغير ذلك

وقد ساق كوستاف لوبون في حضارة العرب جملة من هؤلاء من بينهن فاطمة التي كانت تنسخ للحكم الثاني والتي أعجب العلماء برسائلها في الفنون والعلوم وخديجة الشاعرة ومريم التي كانت تعلم بنات الأسر الراقية في اشبيلية العلم والشعر فتخرجت في مدرستها نساء بارعات وراضية نابغة عصرها في القريض والقصص الرائعة والتي جالت في الشرق حيث كانت محط هتاف العلماء في كل مصر.

وورد في « خلاصة الاثر » أن بنت ابن الصائغ صارت شيخة للطب بدار الشفاء المنصورية بمصر بعد وفاة والدها ( ج I ص 204 )

ويذكرون من بين صالونات الادب التي كانت مجمعا للكبار المفكرين مجلس سكيته في الحجاز ومجلس عليه بنت المهدي ومجلس الفضل في بغداد ونزهون في غرناطة وولادة بنت المستكفي وتحدث ابن جبير عن مجالس العلم والادب التي شاركت

فيها المرأة بحضوره في القرن السادس

وهكذا انفسح مجال العلم أمام المرأة المسلمة في مختلف الاعصار والأمصار وقد أثار القلقشندى صاحب صبيح الأعشى مشكلة الثقافة النسوية فقال : « ليهيرو أن أحدا من المتقدمين أنكر على النساء هذا الحق »

أما في الميدان العسكري فقد ذكر الطبري أن النساء كن يجهزن الجيش في حروب القادسية ( ج 6 ص 317 ) وضربت صفية المثل الرفيع في البطولة الأولى للمرأة المسلمة ( ابن الأثير ) وشهدت أم سليم والدة أنس ابن مالك المغازي كلها ( أسد الغابة ) وشاركت أم عمارة مع زوجها في غزوة أحد وحرب اليمامة وأصيبت اثنتي عشرة إصابة في غمرة المعارك وصاحبت خولة في جموع النساء بدمشق فأسقطن ثلاثين جنديا للعدو ونقل ادوار دجيبين في تاريخه هذه الواقعة فقال : « كان هذا الجيش من الجنس الناعم جديرا بالاجلال والتقدير اذ كانت المسلحات ماهرات في ضرب السيف واستعمال الرماح ورمى السهام واستطعن بتلك الحلال ان يحافظن على عفافهن في ظرف دقيق وموقف حرج » وفي موقعة اليرموك ثارت الغيرة والحمية في النساء فبرزن من خيامهن واقتلن أعمدتها وحملن ما استطعن حمله من السلاح وأنزلن بالعدو هزيمة نكراء وذكر ابن الأثير أن أسماء بنت يزيد قتلت وحدها تسعة من جنود الروم وتقدمت جوربة أخت معاوية بفرقة من النساء وأخذت تناضل في اليرموك حتى جرحت وفي يوم التعوير ( اليرموك ) كانت أسماء بنت أبي بكر تقاتل الى جانب زوجها الزبير بن العوام وبارزت غزاة الحجاج فلاذ بالفرار وكانت والدة أسماء وأخته تحاربان في الحروب الصليبية وفي الهند قتلت رضية سلطنة الاسد بضربة من سيفها البتار وكانت تتخذ زينتها من الاسلحة والدروع وفي إحدى الغزوات فنشر النساء خمرهن وجعلنها رايات وزحفن نحو العدو حتى ظنن المشركون أنها نجدة وأنهزموا ( كامل ابن الأثير ج 2 ص 207 ) وكان لخزانة ابنة خالد حظ وافر من الأدب والفروسية وقد حضرت فتوح العراق مع سعد بن أبي وقاص وخاضت معه المعامع وحضرت معركة الحرة ، وكانت خولة الكندية تفوق الرجال فروسية وبسالة وحضرت مزروعة الحميرية فتوح الشام ومصر مع خالد بن الوليد -

وفي القرن الأخير أخذ نساء مصر العساكر الفرنسية الى دورهن وقتلنهم ورمينهم في الآبار ( رسالة نقولا الترك ص III )

أما في الموسيقى والغناء فهناك المآت ممن كان لهن المباع الطويل والمبراعة الخارقة وقد ذكر معبد عن جميلة الخزرجية أنه لولاها لما كان هو وزملاؤه مغنيين وكان يتحاكم اليها أهل الفن في مكة والمدينة والبصرة وتعتبر غزاة الميلاء أقدم من غنى الغناء الموقع من النساء بالحجاز والفت الحاناً غريبة وفتنت أهل المدينة رجالا ونساء -



ولم يخل عصر من العصور ولا بيئة من البيئات في الامصار الاسلامية الى يومنا هذا من نساء نافسن الرجل في جميع حقول المعرفة مع وقار وصيانة وقد يخيل للناس أن المرأة المسلمة انحطت في المجموع بالنسبة للمرأة الاوربية ولكن مؤلف حضارة العرب الذي صنف كتابه عام 1880 أكد « أن خانة النساء المسلمات في عصره كانت أفضل من حالة اخواتهن في أوربة » وأنه اذا كان هنالك انخفاض في مستواههن فقد حدث « خلافا للقرآن لا بسبب القرآن » وزادت النهضة الحديثة المرأة المسلمة شعورا بمركزها الممتاز الذي خوله اياها الاسلام الذي ضرب المثل السامي فيه نساء كن رمز النبوغ والطهر والعفاف ازيد من ثلاثة عشر قرنا .

## عالمات المغرب وأدبياته في مختلف العصور

لعبت المرأة المغربية دورا بارزا في المجتمع في مختلف مراحل التاريخ واذا لم يكن هذا الدور ناصعا في كثير من الاحيان فانه لم يكن كذلك باهتا اذا لاحظنا ان الوسط النسوي المغربي الذي نبغت فيه عالمات شهيرات كان قبل كل شيء مدرسة للتربية ومعملا اقتصاديا فكانت المرأة ربة البيت وراعيته والمشرقة على الحقل والسوائم في البادية والصناعة الماهرة في الحضر والوبر وللمرأة حقوق اقتصادية اكثر مما للرجل لان الاسلام يخولها حق الانفاق في البر من مال زوجها بينما يحظر على هذا التصرف في مال زوجته بدون اذنها وكانت المرأة في هذا وذاك محط احترام الرجل ومثار حبه الا في النادر بل ان بعض النساء اظهرن براعة ادارية ولباقة وحكمة جعلت منهن مستشارات لازواجهن الامراء والرؤساء وساهمت المرأة كذلك بحظ وافر في الاسعاف ورصد الاوقاف للمعوزين واقامة المعاهد ويكفي ان تعلم ان جامع القرويين انما اسسته فاطمة ام البنين بنت محمد بن عبد الله الفهري عام 245 هـ بينما اقامت اختها مريم جامع الاندلس الذي كان ينافس جامعة القرويين حوالي القرن الرابع الهجري وصار بعد ذلك اكبر فروعها

وقد نبغت في العهد الادريسي الاميرة الحسينى بنت سليمان النجاعي زوجة المولى ادريس الازهر الذي كان لا يفعل شيئا الا بموافقتها وكانت اليها المشورة في دولته (الدور السنية ص 8) وقد اشار محمد الكانوني في مخطوط له حول « شهيرات المغرب » الى بعض من نبغ من النساء فذكر عاتكة بنت الامير علي بن عمر بن ادريس زوجة الامير يحيى ابن يحيى بن محمد التي كان لها اثر في مصير السياسة المغربية وخروج الدولة من بني محمد بن ادريس الى بني عمر بن ادريس وكان الناس قد قاموا على زوجها الذي مات بفاس غما فاستنجدت هي بوالدها علي بن عمر صاحب صنهاجة وغمارة وغيرها من الريف الغربي فجيش الجيوش واخذت الثورة واسترجع فاسا عام 281 هـ وقد ذكر صاحب المعجب ( ص 41 ) ان في دولة الحموديين الادارسة لم يثبت

محمد بن ادريس الا بفضل رباطة جأش والدته التي كانت تقوى منته وتشرف على الحرب بنفسها .

وقد أشاروا الى ام الحسن بنت سليمان بن اصبح المكناسي تلميذة بقى بن مخلد كانت تنفرد به كل يوم جمعة لاخت العلم في داره ( الذيل والتكملة )

وفي عهد المرابطين اشتهرت زينب النفزاوية الهوارية زوجة يوسف ابن تاشفين احدى نساء العالم المشهورات بالجمال والرياسة ولها بنى ابن تاشفين مدينة مراكش كما في « الاستبصار » وكذلك تميمه بنت ابن تاشفين التي كانت راجحة العقل جيدة النادرة ، جمعت ثروة اشرفت على ادارتها بنفسها وكان لها كاتب تحاسبه وهي تكنى أم طلحة وكانت مشهورة بالادب والكرم ذكرها ابن الابار في آخر كتابه في النساء وابن القاضي في (الجدوة ص 106) وقد لعبت قمر زوجة علي بن يوسف دورا في سياسة الدولة وكان الامير يدير كل الشؤون العمومية بإشارتها وكانت حواء بنت ابراهيم المسوفي تقرأ وتحاضر بالادب كما كانت اختها زينب تحفظ جملة وافرة من الشعر وكانت حواء بنت تاشفين من شهيرات نساء عصرها

وقد قامت فانو بنت عمر بن بنتيان بدور خطير في الدفاع عن الدولة اللمتونية فهي من البطلات التي يحق للمغرب ان يخلد ذكراهن فقد استماتت في الدفاع بحد السيف عن قصر الخلافة بمراكش وناضلت نصف يوم قبل ان يستسلم اسحق ابن علي ويدخل الموحدون الى العاصمة عام 545 هـ وقد أثار استبسال هذه العذراء اللمتونية اعجاب الموحدين في ذلك العصر

وفي أيام الموحدين درست أم هاني بنت القاضي عبد الحق بن عطية على والدها واخذ الناس عنها العلوم وهي والدة ابي جعفر احمد الاديب طبيب المنصور ولها تأليف في الوعظ والارشاد ( ابن عبد الملك ) وقد درست زينب بنت يوسف بن عبد المؤمن علم الاصول على ابي عبد الله ابن ابراهيم امام التعاليم والفنون فكانت عالمة وذكر ابن عبد الملك انها ولدت بالاندلس وتزوجها ابن عمها زيد ابن حفص وكانت عالمة صائبة الرأي معروفة الشفوف على نساء زمانها ( الذيل والتكملة )

وحفصة الركونية كانت استاذة نساء دار المنصور بمراكش وكانت اديبة زمانها ( الدر المنثور في طبقات ربات الخدور ص 165 ) بل استاذة عصرها ( الاحاطة ) وهناك ايضا ام عمرو بنت ابي مروان ابن زهر طبيبة دار المنصور كانت تداوى نساء القصر واطفاله وكانت تستفتى في الطب ولها بنت هي ابنة ابي العلاء كانت عالمة بصناعة الطب والولادة وورقاء بنت ينتان الفاسية الادبية الشاعرة وهي طليطلية سكنت مدينة فاس وتوفيت عام 540 (الجدوة ص 335 )

وام العلاء العبدرية نزيلة فاس كانت تعلم القرآن بغرناطة وامة العزيز المسبتية

لها اشعار رائقة وام انجز العبدرية كانت مجودة بالسبع وروت عن ابيها صحيح البخارى وزينب القرقولية سمعت على ابيها وكانت ضابطة متقنة وكانت زوجة عتيق الغساني تزيل مراکش واغمات استاذة في القراءات السبع ( تكلمة ابن عبد الملك ) وام المجد مريم بنت ابي الحسن الغافقي الذي فتح مدرسة للغرباء في سبتة وحبس عليهم اول مكتبة بالمغرب قد درست الحديث ووصفها بالعجوز المستندة محمد بن القاسم السبتي في «اختصار الاخبار عما كان بسبتة من سني الآثار» ( ص 5 ) وخيرونه الفاسية التي كانت تحضر مجلس عثمان السلاجلي امام أهل فاس في الاصول ولها الف العقيدة البرهانية على طريقة الاشعري .

ويقال بأن بنت المهدي بن تومرت حاربه يوما كاملا بعد رجوعه الى تينمل من محاربة اللمتونيين لتبرهن له أنه ترك خليفة جديرا به فسر بذلك ( رحلة الوافد في اخبار هجرة الوافد للفقير السيد محمد بن الحاج ابراهيم الزرهوني من تاسفت بوادي نفيس ) وهي اسطورة شائعة وان كان المهدي لم يعقب حسب روايات أخرى ونبغت في عهد المرينيين فاطمة وأم هاني بنتا محمد بن موسى العبدوسي وهما فقيهتان وأم البنين الفقيهة جدة الشيخ زروق وسارة الحلبية الفاسية وهي استاذة شاعرة من طبقة عالية في الادب توفيت بفاس حيث اجازت عبد الله بن سلمون ولها قصيدة اجابت بها ابن رشيد السبتي ومدحت في أخرى مالك بن المرحل ومن النساء البارعات صفية العزفية السبتية وهي من فضليات نساء عصرها في العلم والصيانة وصبح جارية الحكيم الجزنائي فيلسوف المغرب وطبيب وكاتب ديوان الانشاء في دولة ابي الحسن المريني لقنها العربية فنظمت الشعر ( جذوة الاقتباس ص 58 )

وست العرب بنت عبد المهيمن الحضرمي السبتي اجاز لها ابن رشيد عام وفاته 721 هـ « ازهار الرياض » وامة الرحيم السبتية اجاز لها جماعة وام قاسم زهرة جدة الامام حسن المرادي الأسفى المعروفة بالشيخة

ولم تكن المرأة المغربية في هذه العصور تختلف عن المرأة العربية في شجاعتها ورباطة جاشها لا سيما في الصحراء او الجبال التي انبثق منها المرابطون والموحدون والمرينيون « وكانت قبائل بني مرين تخرج بجميع العيالات في الحرب كما وقع في الغزاة التي تقابل فيها ابو يوسف بن عبد الحق مع يغمراسن بن زيان في تلمسان حيث برزت الجمال المحلاة والمراكب الملبسة بالديباج والقباب المزينة والجواري المولدات تقودها الرجال في احسن زى وأتم جمال ( الذخيرة السنية ص 146 )

ولما قامت عمارة مدينة فاس على السلطان عبد الحق المريني اقاموا محمد بن علي الجوطي اماما فبقى الى سنة 875 حيث عزله أبو الحجاج يوسف بن منصور بن زيان الوطاسي وبقيت فاس في يد أخت ابن الحجاج الزهراء المدعوة زهور مع قائده الشكيري الى أن تولى الامير محمد المدعو الشيخ بن ابي زكرياء الوطاسي ( الجذوة ص 131 )

وفي عهد الوطاسيين كان للسيدة الحرة صيت واسع في الميدان السياسي فقد وردت ترجمتها مطولة في مجلة هسبريس ( النصف الثاني لعام 1956 ص 222 ) ولدت هذه السيدة عام 900 هـ ودرست العلوم على عدة شيوخ ويظهر انها درست اللغة الاسبانية لان والدتها لالة زهرة اندلسية تزوجت على بن راشد قائد شغشاون عندما كان يجاهد وهو شاب في العدة وبذلك كان للسيدة الحرة نوع من الاستعداد للدور السياسي الذي لعبته فقد تزوجت على المنضري وانتقلت معه الى تيطاون الى حيث وجدت وسطا اندلسيا مثقفا رقيق الحاشية كالذي ربيت فيه وكان زوجها في نضال مستمر مع البرتغاليين في طنجة واصيلا وكذلك في سبتة مما ساعد السيدة الحرة على لمس الدسائس السياسية التي كانت تحاك في ذلك العصر ضد المغرب وقد وهم كاتب المقال حيث اعتقد ان الست الحرة وعائشة أم ابن عسكر شخصية واحدة وهو خلاف ما يفهم من كلام ابن عسكر في ( دوحة الناشر طبعة فاس الحجرية ص 19 ) وقد نبه على هذا الغلط صديقنا الاستاذ محمد داود في « مختصر تاريخ تطوان » ( ص 31 )

وعندما مات المنضري تزوجت مولاي على بن عمر الحسني وولدت بنتا زوجها لاحد حفدة المنضري الذي كان والده قائدا في تطوان والذي عرفت كيف تنحيه لتجعل صهرها الشاب في منصبه وتستبد هي نفسها بالقيادة المطلقة في تطوان وبالجهاد ضد المسيحيين وكان لها بواخر تقرصن في الشواطئ الاسبانية كما كانت لها علائق طيبة مع الاتراك وسلطان فاس وفي عام 1541 تزوجت السيدة الحرة مولاي احمد الوطاسي الذي تركها في تطوان وكلفها بالاتصال بالبرتغاليين وكان لها تشاحن مع والي سبتة التي كانت تطمح هي الى احتلالها بينما كان الوالي البرتغالي يطمع في تطوان لترويج منتجات بلاده داخل المغرب .

اما تمدين السعديين فقد تم على يد العريفة بنت بنجو التي لقيتهم مظاهر الحضارة الملوكية لا سيما داخل القصور والبيوتات ( تاريخ الدولة المسعدية ص 25 ) وكان لمسعودة الوزكيتية والدة المنصور الذهبي عناية باصلاح السبل وعمارتها وتشبيد الحانات بالامكنة الحالية وبناء القناطر (اصلحت جسر وادي أم الربيع عام الف) وتجهيز اليتامي وتزويج الارامل وهي التي اسست مسجد باب دكالة بمراكش عام 965 ووقفت عليه نحو سبعين حانوتا وغيرها واقامت بازائه مدرسة للطلبة الغرباء ومكتبة وذخائر كتبت على بعضها بخط يدها والاميرة سحابة الرحمانية ام عبد الملك الغازي التي لعبت دورا كبيرا في حمل الخليفة التركي على اصدار امره لوالي الجزائر بمساعدة ولدها على استرجاع ملكه بالمغرب عام 983 و ام كلثوم بنت الشيخ بناصر قرات الوغليسية في الفقه والبردة في السيرة والنساء الناصريات في درعة متعلمات على وجه العموم ولا نطيل بسرد اسمائهن .

وفي العهد العلوي طار صيت الاميرة خنانة بنت بكار المغافرية زوج المولى اسماعيل

فقد ذكر صاحب الجيش (ص 105) أنها حصلت العلوم وقد كتب على هامش الاصابة لابن حجر وكانت تصدر عنها ظواهر ومراسيم في بعض الشؤون القبائلية في عهدي مولاي اسماعيل وولده عبد الله وكان زوجها يستشيرها في بعض الشؤون وقد قال عنها الرحالة الاسحاقى انها كانت لزوجها وزير صدق وبطانة خير

ومن النساء العالمات عائشة بنت بونافع الفاسية والددة عبد المجيد الزبى كانت تحضر مجالسه العلمية والزهره بنت محمد المشرقى زوجة اليوسى كانت شبيخة فقيهة اخذت عن زوجها بالاجازة جميع مروياته واخذ عنها ابن اخيها اللغوى محمد بن الطيب المشرقى وخديجة بنت عبد الله الحوات كانت تعلم النساء المنقطعات وسكينة بنت السلطان مولاي عبد الرحمن كانت طلعة للكتب والدواوين والفقيهة فاطمة زويتن وام قاسم الحسناوية ورقية بنت الحاج ابن العايش اليعقوبية الادبية الفقيهة العارفة بالعربية واللغة والتفسير والشعر والسيرة وأسرار الحروف والاسماء والتوحيد والبيان والصرف كان يدرس عليها الرجال والنساء مختلف الفنون - كما يقول الكانونى وكانت فى مجالس التفسير تتوخى اسباب النزول وعلوم القرآن وانساب العرب والتاريخ توفيت اوائل القرن الرابع عشر وصفية بنت المختار العالمة فى التجويد والتفسير والسيرة والنحو وكانت منتصبة للتدريس وهى شنكيطة ومثلها ميمونة بنت الشيخ محمد الحضرمى التى كانت راوية الاشعار ومشاركة فى العلوم واختها ربيعة التى كانت لها عارضة فى الادب والشعر نقادة للشعراء وهند زوجة ماء العينين المشاركة فى مختلف الفنون وخديجة بنت الامام محمد العتيق وكانت تبذل فى العلم عالمات عصرها بل وكثيرا من علمائه وقد نبغت فى الشعر فتاة فى شنكيط اسمها مريم كما فى « الوسيط فى ادباء شنكيط » ( ص 337 )

وفى اوائل هذا القرن كانت العالية ابنة الطيب بن كيران تدرس المنطق فى جامع الاندلس من وراء حجاب وكان لها ضلع فى مختلف الفنون واذا صدقنا رواية احد طلبة القرويين الذين روى عنهم موليراس حوالى 1895 نلاحظ ان غالب نساء قانس مثلا كن قارئات لهن الملم بالادب خصوصا قصائد الامام الغرناطى وكان النساء يحضرن دروس العالية بعد العصر والرجال وقت الظهر

ولا نكاد نحصى الاستاذات او النسوة المثقفات اللواتى كن يعشن فى حواضر المغرب وبواديه

وقد أشار صديقنا الاستاذ محمد داود فى « مختصر تاريخ تطوان » ( ج 2 ص 291 ) الى لا غيلانة فوصفها بالفقيهة الصالحة العالمة العاملة الزاهدة واسمها «امنة ابنة الفقيه الصالح سيدي محمد غيلان وقد « علمها والدها القرآن والعربية والفقه والحديث فكانت عالمة نساء البلد صالحتهن تعلمهن أمور دينهن » توفيت عام 1189 هـ

وقد لاحظ كابريل شارمس فى كتابه « سفارة الى المغرب » ان البطلة البربرية

التي كانت تحكم قبيلة « ايت زدك الجبلية » والتي تسمى رقية بنت حديدو كانت تتقن الفروسية رغم بلوغها الستين سنة وقد هاجمت مرة تشكيلة فرنسية يقودها الجنرال ازمون الوالي العام للجزائر بالثيابة عن الجنرال شانزى ( ص 215 )

ومن الشيوخات اللواتى تلمذ لهن علماء مغاربة :

الشيخة الاستاذة الادبية الشاعرة سارة بنت احمد بن عثمان بن الصلاح الحلبية لقيها عبد الله بن علي ابن سلمون الكتاني بفاس فأجازته والبسته خرقة التصوف وأنشدته قصيدة أجابت بها ابن رشيد السبتي وقد اثبت ابن القاضي في الجذوة ابياتا منها ومدحت امراء الاندلس ورؤساء سبته وشعراءها ( جذوة الاقتباس ص 245 و 324 )

وشهدة بنت احمد بن الفرّج الابدية ذكرها صاحب الجذوة في شيوخ محمد بن عبد الرحمن التجيبي الاشبيلي وهو من الواردين على المغرب .

وقد سمع أحمد بن محمد بن عبد الرحمن الشارقي البلمسي نزيل فاس من كريمة المروزية ( الجذوة ص 68 ) .

ومن شيوخ ابن بطوطة في بغداد الشيخة المسندة بنت الملوك فاطمة بنت العدل علي بن علي بن ابي البدر ( الرحلة )

وكان النساء المغربيات يخرجن لاستقبال العلماء ويحضرن جنازات الائمة الكبار ولما قدم سيدي ابو جيدة من المشرق خرج أهل فاس كلهم للقائه الا من شذ فكان الرجال في ناحية والنساء في ناحية أخرى فسأل عن النساء ف قيل له خرجن فرحا واجلالا لك ( السلوة ج 3 ص 90 )

كما كان النساء يحضرن دروس العلوم كدروس شيخ الاسلام محمد الطيب ابن كيران وكن ينتفعن به لسلاسة عبارته وفصاحة لسانه ( السلوة ج 3 ص 2 )

وذكروا أن شيخ الاسلام وحافظ المغرب عبد العزيز بن ابي عمران العبدوسي الفاسي كان الناس يتسابقون الى المواضع في مجلس درسه قبل ان يصبح رجالا ونساء وفي خارج المسجد اكثر ( نيل الابتهاج لاحمد بابا السودانى ص 158 )

وقد حكى مولييراس في كتابه « المغرب المجهول » أن للمرأة في الريف نفوذا كبيرا على الرجال فهي الآمرة الناهية كما هو الحال في كثير من الاوساط الاسلامية سواء في المغرب أم في تونس والجزائر وقد وهم الاوربيون الذين يظنون ان المرأة المسلمة تعيش تحت رحمة زوجها ( ص 133 - 134 )

وفي بعض القبائل الريفية مثل قبيلة بني بشير ما زال النساء يتكلمن بتمازيغت



اسرائيلية بالزى البدوى

فى حين أن الرجال يستعملون العربية لقربهم من جبالة وتمتاز المرأة بالشجاعة وهى نساجة ماهرة وتشتغل بالاعمال الفلاحية كما تتسم بطهرها البالغ ولعل الرجال أقل بسالة من النساء فى هذه الجهة

والمرأة سافرة فى معظم الريف أما فى جبالة التى تتكلم بالعربية - باستثناء بعض المناطق الغمارية - فان المرأة تتنقب مستعملة الحمار التلمساني فى فشتالة وبنى ورياغل وسلاس وجاية وبنى سميح والويل كل الويل لمن خاطب امرأة فى الطريق ويعذب الزانى فى بنى زروال حيث يطوف فى الازقة وتفقأ عيناه بحديدة محماة أما الزانية المحصنة فانها تحمل بعد التطواف الى اكبر سوق فى القبيلة بحيث تلفظ نفسها الاخير تحت السياط واذا استمر تعذيبها الى الشفق أطلقت رصاصه فى رأسها لجعل حد لعذابها ويجرى نفس العذاب على سارق السوائم التى تسرح بدون راع فى الجبال

والمرأة الريفية جميلة ولود قد أحصى لبعضهن خمسة عشر من الاطفال ولا يحب الريفيون النسوة العاقرات فاذا طلقت المرأة لعقمها لم يعد لها أمل فى الزواج ومع ذلك فالاعراض مصنونة فى الريف كل الصيانة ويذكرون أن لبنى ورياغل غيرة فائقة على نسائهم وانهم لا يسمحون لاجنبى أن يوجد حتى عن طريق الصدفة بالقرب من نسائهم فاذا رأى الرجل امرأة فعليه أن يبتعد عنها دون أن يتبعها النظر والا تعرض لنيران بنادق اقاربها وكذلك الامر فى القليعة وهى جانب من صحراء الريف حيث لا يتمازح مع عرض النساء « والمرأة الورياغلية رائعة الجمال وكذلك الرجال والمرأة هى المشرفة على الشؤون الاقتصادية والاجتماعية ويعمل تحت امرتها مرتزقة أجاناب .

وفى مثوية تمتاز المرأة بحسنها الرائع وهى تتزوج فى الغالب بين الثانية عشرة والرابعة عشرة وقد أكد مولييراس الذى ألف كتابه عام 1895 أن الصداق بلغ أحيانا خمسة آلاف فرنك .

وكانت توجد فى الريف أسواق مخصصة للنساء لا يشاركهن فيها رجال كالسوق الذى ينعقد فى سيدى مالك فى قبيلة بقوية وكسوق مريسة

ولكن توجد فخذة فى الريف هى بنى عروس تزاوّل فيها المرأة الرقص ولا تهتم هذه القبيلة كلها الا بالموسيقى حيث لا تسمع سوى نغمات المزمار ورنات الاناشيد

وفى تمسمان تجرى عادة « الكرنفال » - وهى عادة لا تعرف فى باقى ربوع المغرب وتشارك المرأة فى تماثيلها الشعبية التى لا يخلو بعضها من اسفاف (مولييراس) ص 107 )

وفى بنى توزين تضرب الامثال بجمال المرأة التى هى فى نفس الوقت شجاعة تشارك الرجل فى المعارك وتنجز الاشغال الشاقة بنفسها وتحصد وتحطب وتسقى وتفلح الحقل وهى تلبس الحايك وتغطى سيقانها بجلد كالجورب وهى عفيفة ولود تقوم



وفى الدسول ( لا التسول التى توجد بناحية تازة ) تساعد النسوة المتحجبات ازواجهن فى نسج الملبوسات وصنع القفاف والقبعات وحصر الحلفة بينما يحتكر الرجل صنع البارود لغلبة الروح العسكرية فى الجبل ومن الظواهر الملحوظة فى جبالة ( وسوس ) عدم نياحة النساء على الموتى الذين يشيعون عادة بالزغاريد وهذا التجلد الصامت عند المرأة الجبلية ينم عن قوة نفسية وعن رباطة جأش وتبسط الموائد فى مثل هذه الحالة طوال أربعين يوما وليلة تذوب خلالها تركة المرحوم

وفى بنى مسارة كذلك ( حول وزان ) كانت الكتائب دائما تتوافر حيث يختلط الذكور والاناث وفى الساعة الرابعة من كل يوم تنصرف كئائب من الرجال ( بين 50 و 150 شخصا ) لتتدرب فى كل قرية على لعب الكرة والرماية والمسايفة وتوجد فى كل مركز قروى زاوية للرماة وهى عبارة عن دار للسلاح فيها بنادق الجماعة وبارودها وتجري التمارين كل يوم خارج القرية تحت امرة كبير الزاوية الذى هو القائد الاعلى للرماة المتراوحة أعمارهم بين 15 و 70 سنة وعند عودة هؤلاء فى المساء تسمع رنات الطلقات النارية متجاوبة مع زغاريد النساء اللواتى ينتظرن أزواجهن وأولادهن على عتبات الدور !

وهذه الزوايا العسكرية كانت منتشرة من طنجة الى وادى درعة ( وبالاخص السوس والحوز )

ومن خواص الزواج فى جبالة أن العروس تقضى أسبوعا كاملا متنقلة بين دور أقاربها صحبة ثلة من صواحبها فى ثياب بيض متقنعة من الرأس الى الاخص وخلال هذه الايام تقام حفلات وماآدب فى كل مكان حلت فيه وفى اليوم السابع تنتظر وصول الوفد الذى يزفها الى الزوج وسط موجة من الطلقات النارية

وطوال اسبوع لا يختل الزوجان الا نحوا من ساعة فى كل ليل ثم ينعطف الزوج نحو اصدقائه ليقضى بقية ليلائه فى السمر وتعود الى الزوجة صديقاتها

وتجري حفلات الرجال والنساء فى جناحين منفصلين من المدار حيث تقضى العادة بالموت المحقق لمن تسول له نفسه الاقتراب من ملاعب النساء

ومن مهام المرأة هنا تربية دود القز وصنع الحرير واصداؤه الى كل من مراكش وفاس

وفى القبائل المحاذية لتطاون تلبس المرأة المتزوجة قبعة واسعة مصنوعة من سعف الدوم وكذلك الفتاة عند ما تبلغ العشرين من عمرها ولو كانت غير متزوجة وتدين النساء القاطنات فى قمم جبالة « الترابق » الجلدية على سيقانهن لاتقاء لذغات الافاعي

ومن الغرائب فى جبالة أن الحامل تضع وهى واقفة وتنظم الحفلات الصارخة اذا

كان المولود ذكرا أما اذا كان بنتا فانه لا عقيقة ولا ضحية ولا زغاريد ولا طلقات نارية وهي عادة غربية متغلغلة فى الجاهلية الاولى

وفى قبيلة بنى احمد السرق حيث تتوافر الكتابيب القرآنية ويتوارد الطلبة من طرابلس والجزائر وتونس وكورارة ( لانها قبيلة مشهورة بالبركة فى العلم ) يتعاطى معظم السكان - رجالا ونساء - العلم كما يساهم الجنسان فى صناعة المصابون والحصر والزرابى والمخالى والاطباق

ومن هذا العرض يتضح أن جباله التى تعتبر مساحتها ضعف مساحة المريف وتحتوى على اثنتين وخمسين قبيلة فى وسعها أن تجرد ثلاثمائة ألف جندى لمحاربة الدخلاء الاوربيين كانت دائما مضطرة لان تترك للمرأة الاعمال الاقتصادية والمنزلية لينصرف الرجل بكليته الى الفروسية والرماية استعدادا للطوارئ .

وهو يعطينا صورة عن اسهام المرأة البدوية فى الحركة الفكرية النسوية ومزاحمتها للمرأة الفاسية التى ذكر السخاوى فى « الضوء الملامع » عشرات من الامثلة عنها

## فى الاطلس والصحراء

ولعل من العسير - رغم وحدة الاعراف على وجه العموم فى مجموع افريقيا الشمالية - استقراء جزئيات الاعراف البربرية لقلة الوثائق التى يمكن الاعتماد عليها تلك القلة الراجعة لكون اللهجات البربرية لا تكتب اللهم الا عند التوارك حيث توجد حروف تيفيناغ ويلاحظ أن النساء يعرفن وحدهن الكتابة عند هؤلاء البربر وهن قلائل على أن هذه الوسائل لم تستعمل لنقل نصوص العرب أبدا عن جد وحتى فى القبائل البربرية التى تستعمل اللغة العربية لم يسجل سوى الميسير من الاعراف ( باستثناء ناحية مزاب )

ويتصل جانب كبير من العرف بالمرأة التى يحظر عليها مثلا - مهما يكن سنها ومستواها الاجتماعى - أن تكون عضوا فى الجماعة حتى ولو سمح لها بأن تكون على رأس عائلة بدلا من الرجل وليس معنى هذا أنه ليس لها حق اسماع صوتها واقناع الجماعة بمشاورتها الرأى فذلك كثيرا ما يقع لاسيما اذا كان للمرأة تأثير فى المجتمع وربما ناب عن المرأة فى ابلاغ رأيها الى مجلس الجماعة أحد أعيان القبيلة.

وهناك ما يسمى عند البربر بالمزرك وهو شبيه بالاجارة عند العرب أى الرابطة الناتجة عن اتفاق حاصل بين فرد من الجماعة وفرد آخر أجنبى عنها فالحامى أو المجير يسمى الزطاط والمجار أمزдор وهذه الوثيقة تفرض على مجموع القبيلة حماية الاجنبى بل ان المسؤولية الجماعية تقوى اذا كان الشخص المجير امرأة

والمرأة البربرية محرومة من الارث وحتى فى المناطق التى يجرى فيها العمل بالفقه المالكى تقع تحبيسات أو أنواع خاصة من الشفعة للحيلولة دون انتقال حقوق المرأة العينية الى الرجل الاجنبى فحرمان المرأة من الارث لا يقصد منه معارضة حكم الاسلام وانما هو ناتج عن الخوف من تسرب الاجانب الى الملك العائلى

أما الزواج فانه يصطبغ سواء عند البربر أم عند العرب المسلمين بصبغة مقدسة ولا ينطوى على اية فكرة للتملك كما يزعمه الاجانب الذين ياخذون على الاسلام احتقاره للمرأة واعتبارها ملكا سائغا للرجل وقد اشاد سوردون بنفوذ المرأة فى المغرب عند الامازيغيين ( المؤسسات والاعراف عند البربر ص 218 ) واذا استثنينا الارث وجدنا أن المرأة البربرية تتمتع بحقوق منها أن تكون ربة البيت وأن تتبنى أجنبيا وتلحقه بالقبيلة وأن تحمي الاجانب ولها حق الفرار اذا لم ترض بزوجها مثلا فله هو حق الطلاق ولها هى حق الفرار وتقوم بدور الخطبة جماعة من ستة الى اثني عشر فردا من اقرباء الزوج يكونون فى نفس الوقت شهودا فى العقد وتقدم هذه الجماعة قربانا الى الوالد فاذا ذاق منه بمحضرها يعد قبولاً واذا رفض الاكل أو بادر بذبح كبش فان ذلك يعد منه رفضا للزواج أو تحفظا على الاقل وبالقبول تبتدىء عملية الاملاك « اسرورت » ويرسل الخطيب هدايا الى نساء خيمة زوجته ويطلب رأى الزوجة اذا كانت ثيبا فاذا كانت بكرا اكتفى نظريا برضى الوالد ولكن بما أن الزوجة تتمتع بحق الفرار اذا زوجت عن غير رضى منها فان اهلها يطلبون نظرها عمليا والمرأة البربرية سافرة اللهم الا فى بعض المقاطعات فى الشمال والجنوب حيث تستتر المرأة بيديها أو تستدبر الاجنبى اذا مر فى الطريق

وعند وفاة الزوج يمكن لورثته التعرض لزواج أرملته اذا كان الهالك قد سلم صداقا لوالد الزوجة ويسمى هذا الصداق « عتيق » ولهم أن يصروا على هذا التعرض الى أن يحصلوا من الزوج الجديد على نفس المبلغ ولا يعترف العرف بالزواج الواقع غلطا ولو أدى الى حمل لان فى ذلك اخلالا بمصالح الجماعة وتهديدا لوجودها السياسى والاجتماعى وحتى فى حالة الطلاق يتعرض الرجل فى زواج مطلقة الى ان يحصل من الزوج الثانى على نفس مبلغ « العتيق » وله أيضا ان يتعرض فى زواجها من اشخاص معينين اذا ثبت لديه أنه كان لها بهم علائق أئيمة .

وهناك قبائل تجرى فيها زواجات جماعية أولا يدفع فيها عتيق ففى آيت يزة ( آيت حديدو ) مثلا ينعقد موسم يستمر من 23 الى 25 شتنبر من كل سنة تحضره جماعات من الفتيات أو الارامل أو المطلقات (فى كل جماعة نحو سبع أو ثمانى نسوة) لابسات اجمل حللهن فاذا وقع اختيار رجل على احدهن خاطبها فتجيب بالقبول أو تدير رأسها علامة النفي وكذلك الامر فى موسم تزروالت ( سيدى احمد وموسى )

أما فى آيت عيشة وبعض قبائل ازلال فان الزوج لا يدفع العتيق بل العتيق ممنوع



رجل من زمو الشلح

فى ءايت شخمان ( ءايت داوود ) وانما يدفع الزوج وعائلته هدايا للزوجة واغيرها وعلى هؤلاء ارجاعها للزوج عند انحلال العصمة باطلاق أو الموت واذا زنت المرأة فعلى مشاركتها فى الجريمة أن يؤدى الى الزوج - حتى ولو لم يكن قد دفع العتيق - مبلغا برسم الدية والا فسخ الزواج ولو بعد الدخول والمرأة الايم ( تجالت ويقال هجالة فى حواضر المغرب ) تتمتع بحرية كاملة بل يقال بان فى ءايت حديدو مثلالتزوج الفتيات ويحصلن بالخلع على الطلاق ليصبحن ايامى وتجبر الايم فى كثير من القبائل على التزوج باحد اخوة الهالك ولا يسمح لها بالتزوج بغيرهم الا اذا عدلوا عن الزواج بها ويحظر الزواج باشخاص يمارسون بعض المهن كالحدادة والبهلوانيين ( الحلايقية ) والباعة الجوالين والعبيد لعدم استقرارهم فى القبيلة وفى حالة الزواج بالاجنبى المقبول فى القبيلة يتم الاتفاق على عقدة للزواج واشغل معا

والبربرى لا يتزوج عمليا الا بامرأة واحدة لاسباب منها الفقر وتعذر العول والمرأة مساعدة لزوجها تشاطره حياته الشاقة والعسكرية وتساهم فى أعمال الحقل والهجرة حسب الفصول وعند شبوب الحرب تقوم المرأة بتموين المجاهدين بالطعام والعتاد حتى فى الصفوف الاولى للقتال وتحض المرأة الرجال على الصبر والمصابرة واذا فر مجاهد من ساحة العراك تسم النساء جلبابه بالحناء فيصبح مسخرة الجميع لان المرأة تفضل أن يموت الرجل عن شجاعة واستبسال كما هو الحال عند العرب

والمرأة المعتدة تلبس البياض وحذائين من لون ناصع ويعترف العرف للمرأة بحق فسخ الزوجية باتقرار عند أجنبى وذلك عند اضرار الزوج بها أو عدم انفاقه عليها والواقع أن الزوجة تفر عند ما تصبح حياتها الزوجية غير موافقة ولا يترتب عن هذا الفرار الطلاق البائن الا اذا تكرر الهروب ثلاث مرات فعند ذلك تعلن الجماعة الطلاق وعند غياب الزوج سنة كاملة يصبح من حق المرأة أن تطلب من الجماعة اعلان فسخ الزواج وعلى زوجها الجديد اداء ثلثى العتيق الى ورثة الغائب .

اما بسوس فان وضع المرأة لا يختلف عنه فى باقى النواحي البربرية عفاً ونشاطاً واحتراماً عند الرجل فالمرأة ربة البيت ترعاه وتحمل جميع اعبائه الاقتصادية والاجتماعية

والحجاب غير موجود فعليا وانما هو فى الغالب حجاب بدوى لا يعدو ستارا من الحياء يجعل المرأة تتحاشى الرجل ما أمكنها أو تغطي وجهها بذيل رداؤها عند مقابلة الرجل وتوجد كما فى الشمال أسواق خاصة بالنساء مثل أسواق حاحة وسهول شتوكة وهناك أسواق تخصص فيها أحنحة للنساء لعدم اختلاط الجنسين والمرأة هى التى تتكفل بشراء وبيع بعض المواد كالصوف والحناء والفواكه والبيض وهى التى تسمد الحقل ويجتمع النساء لنقل الاسمدة فى قفاف على رؤوسهن ويكتفى الرجل بزوجة واحدة وتعيش العائلة فى منزل واحد مهما تشعبت بزواج افرادها وتسرى

روح النشاط من السومبيين الى نسائهم وقد ذكر البكري في مسالكه في القرن الخامس « أن أهل السوس وأغمت أكثر الناس تكسبا وأطلبهم للرزق يكلفون نساءهم وصبيانهم التحرف والتكسب ( ص 163 الجزء الخاص بالمغرب )

ووضع المرأة البربرية ليس واحدا في جميع مناطق افريقيا الشمالية

فحالة المرأة الاباضية في مزاب على خلافها في الاطلس فالزوج لا يخرج زوجته خارج منطقة مزاب بل محظور عليه ان يدخل امرأة اجنبية الى هذه المنطقة وللزوج أن يمنع زوجه من الخروج ولكن عليه ان يجالسها في الدار ويسكنها في محل صالح ولا يتزوج الرجل الا بواحدة لان في وسع زوجته منعه حتى بالتسرى ولها عليه كسوة الصيف والشتاء والحمار والاحذية والمشط والكحل والحناء واذا حرمها من ثياب الشتاء مثلا وقع جلده وليس من حق الرجل أن يفرض على زوجته النسيج أو المعجن أو الطحن أو غسل اثياب ولكن على الزوجة اعداد طعام زوجها الشخصي ولو كانت لها مائة خادمة وليس للمرأة حق الفرار ولكن لها رفض بعض انواع الزواج أو اشتراط حق الطلاق في العقد وهناك عادة في مزاب شبيهة بما عند « القبائل » الجزائرية وهي منع انطلاق من الزواج لانها تظل على « رقبته » ويجبر على الانفاق عليها لهذا يضطر غالبا الى رفع الحجر عنها وكان الصداق في مزاب لا يعدو قبل الحرب الاخيرة 750 فرنكا للغني والفقير

وعند المزابيين ما يسمى بالغسالات وعددهن خمس في غرداية مثلا حيث يتم الوفاق على تأليف مجلس « حلقة الطلبة » وهن يتحكمن في النساء ويفرضن عليهن نظاما عرفيا خاصا ويحرصن من غاب زوجها وهن في الغالب قارئات كاتبات باللغة العربية يعقدن مؤتمرا سنويا عاما ويصدرن احكامهن فيه على النسوة المجرمات ويسهرن على الاعراف التقليدية

وللمرأة في الاوراس حق الاتفاق مع من تريده زوجا لها ليختطفها وذلك بلفه في برنسه ونقلها أمام الناس الى منزل وانديه ويطبق هنا المذهب المالكي في كثير من الامور التي تهم المرأة وعلى المرأة في الاوراس نقل الاسمدة الى الحقل والفلاح وتربية السوائم وغزل الصوف وصنع أواني الخزف واعداد الجلد وتجفيف الفواكه والخضر وصنع القطران وجعل المرأة بالغزل يمكن أن يعتبر سببا في الطلاق

وفي جزيرة جربة بتونس كان يحظر على النساء الخروج من الجزيرة كما يحظر على الرجل ادخال اجنبية اليها والجربيون اباضيون مثل أهل مزاب وبرايرة جبل نفوسة في طرابلس الغرب وسكان جربة متدينون جدا ويوجد في جزيرتهم 284 مسجدا علاوة على عدة قباب وأضرحة .

وعند التوارك ( توارك لتركهم الاسلام مرارا او لانهم ينتمون لتاركة احدي

قبائل صنهاجة المثلثين ) تتقن المرأة وحدها الكتابة غالبا وحظها في الميراث مثل حظ الرجل والعفاف قليل والولد ينسب الى أمه والمرأة تطلق زوجها وتزوج نفسها والرجل هو الذي يتلثم وتعزف المرأة على العود وتشتغل بالموسيقى

أما في شنجيط فان المرأة محترمة وقد ذكر صاحب الجاش الربيط ( ص 37 ) أن المرأة سيدة البيت لأمراقبة عليها من زوجها والرجل بمثابة الضيف ولا تباشر الخدمة بنفسها « وتمتاز نساء الزوايا بالقراءة فهن يشاركن الرجل في التعليم والاشتغال بالفنون مع الصيانة وعدم الابتذال وإذا نزل بهن الاضياف في غيبة الرجل يحسنن اليه ضاربات المثل القائل بانه ان كان الاسد يقتل فاللبوة تقتل كذلك والاغلب في شنجيط عدم الاحتجاب « اما نساء الزوايا فكثير منهن يحتجبن تدينا « ولباس المرأة بسيط تلتحف بثوب عريض طويل تشتمل ببعضه كقميص وتجعل الآخر فوق رأسها ثم تجعل طرفه امامها وترمي جانبه الاعلى فوق منكبيها وهذه هي الملحفة أو الملاءة العربية ولا تكون الا من الكتان الاسود وربما يأخذ بعضهن مرطا بدون اعتبار الصنف واللون وربما تجعل تحت الملحفة شعارا كالقميص ولباسهن هذا لا يتبدل كيفا ولا كما والصغيرة تستعمل اللباس كيفما اتفق ويعتنيان بكل أصناف الزينة حليا وطيبا وخضابا ويرتبين استعمالها على سنين كل سن وما يناسبه ولهن مهارة عجيبة في ضفر الرأس على حسب السنين واحسن الخلى خرز من الحجارة النفيسة مختلفة الالوان لا مثيل له بالبلدان الاخرى ويلبسن أساور منقطة بالفضة وتصنع من شجر أسود اللون وهي تساوى أساور الذهب والفضة ولا يغنى عنها النقدان ان وجدت .

تلك أعراف يرجع وجود بعضها في المغرب لعوامل اقتصادية وللنصرة القبلية والعصبية الجماعية التي كانت متغلغلة عند البربر والتي زادها الاستعمار تشعبا والآن وقد أعلن الاستقلال وتمت وحدة البلاد وعاد القضاء الاسلامي الى مناطق العرف أصبح من السهل استئصال رواسب الجاهلية لا سيما في خصوص حرمان المرأة من الارث مع الاحتفاظ بما يوافق روح الشريعة والعرف الصالح

ويمكن أن نستخلص من هذا العرض الطابع العام الذي كانت تتسم به المرأة في المغرب حاضره وباديه وهو مزيج من النشاط والحيوية والصون مع ثقافة نسبية في كثير من النواحي ونفوذ حاسم في العائلة ودور اجتماعي واقتصادي يبلغ احيانا منتهى الخطورة واحترام مطلق عند الرجل حتى في أقصى قمم الجبال .

وقد أفاد المغرب من حركة الانبعاث التي انبثقت من الشرق العربي أول هذا القرن فكادت المرأة المغربية تستعيد ما كان لها من سالف عز في الحقل الفكري لولا طرود «أفة الاستعمار على هذه البلاد وقد تبلور هذا الطموح الشعبي قبل الحماية ( عام 1326 الموافق عام 1908 ) في مشروع الدستور الحفيظي الذي قرر احداث مدارس

للبنات في كل بلدة وقرية وذلك في مرحلة اولية ويتما يتهيأ الفوج الكافي لفتح معاهد ثانوية نسوية .

وبالرغم من الدسائس الاستعمارية توفقت الحركة الوطنية تحت رعاية جلالة الملك وتشجيعه لتنظيم التعليم النسوي في المدارس الحرة ثم انشئت مدارس رسمية للبنات وخصص لهن قسم في جامعة اقرويين تخرجت منه بعض العالمات لاول مرة في تاريخ المغرب وتأسست جمعيات نسوية مختلفة وتطورت الحركة بعد الاستقلال بمؤسساتها الاجتماعية وجمعياتها الاسعافية تحت اشراف زعيمة النهضة النسوية الاميرة لالة عائشة ومساهمة اخواتها الاميرات والمغرب مقبل على انبعاث نسوي يشمل جميع طبقات الامة ولنا كل اليقين في ان تتحقق هذه النهضة في دائرة المبادئ الاسلامية بفضل العناية الخاصة التي يوليها صاحب الجلالة نصره الله لمستقبل المرأة في هذه البلاد



زربية من صنع الرباط  
وهي من أجمل البسط  
المغربية



## الفصل الثاني :

# رسالة الاوقاف الاسلامية

تتسم الاوقاف في المغرب باهمية كبرى نظرا للدور الاجتماعي الخطير الذي ينتظر منها القيام به علاوة على مهمتها الدينية .

وقد عرفت الاوقاف في العالم الاسلامي ازدهارا خاصا، ولعبت في مختلف العصور دورا اجتماعيا واقتصاديا وثقافيا كان له اثره في تكييف الاجهزة المسؤولة في الدولة ، وتخفيف الوطأة الى حد بعيد على الميزانية العمومية .

ولن نتحدث في هذه المقالة عن ماهية ائوقف وتعريفاته القانونية ، واطاره الشرعي وما اثير حول ذلك من خلافات تند احيانا عن روح الموضوع واهداف المشروع التي هي اهداف انسانية في ذرائعها وغاياتها . وانما اريد ان ارسم لوحة مصغرة عن المظاهر التي اتسمت بها هذه المؤسسة في مختلف الاعصار والامصار الاسلامية .

لقد تذرع المغاربة منذ انبثاق فجر الاسلام بهذه البلاد - بشتى الوسائل لتركييز الفكرة الاسلامية وتحقيق ازدهار المسلمين في آن واحد بواسطة « رباع » توقف على المؤسسات الدينية والاجتماعية وقد ساهم الملوك والشعب في هذه الحملة الدينية الاسعافية التي كانت تتخذ مختلف المظاهر لتحقيق غاياتها واذا راجعنا دفاتر الاحصاء الحبسية لاحظنا أن الاوقاف كانت تتوفر في جميع انحاء القطر على حسن الاراضى والعقارات وحتى على السوائم الحية في الجبل علاوة على الغراسات الثرية وقد وقع تفويت جانب كبير من الاراضى الحصبة الشاسعة والاملاك المختلفة في ابان الحماية ولا تزال صكوك تحبيسها موجودة الى الآن .

وقد تبلور الاتجاه الحبسي على الخصوص منذ عهد المرينيين حيث اقام ابو يوسف المارستانات للغرباء والمجانين واجرى عليها النفقات وخصص لها الاطباء وبنى المدارس ورتب فيها الطلب لقراءة القرآن والعلم واجرى لهم المرتبات في كل شهر وبنى المزوايا في الفلوات ووقف لها الاوقاف الكثيرة لاطعام عابري سبيل وذوى الحاجات « الذخيرة

السنية ص 100 ) ' وسار الملوك بعد ذلك على منوال حثيث في هذه الطريق الجديدة حتى انشأ ابو الحسن ' في كل بلد من بلد المغرب الاقصى وبلاد المغرب الاوسط ( الجزائر ) مدرسة فقامت مؤسساته الاجتماعية في تازا ومكناس وسلا وطنجة وسبتة وأنفا ( الدار البيضاء الحالية ) وازمور وآسفى واغمات ومراكش والقصر الكبير وتلمسان وعاصمة الجزائر ( المسند الصحيح الحسن لابن مرزوق ص 35 مجلة هسبريس عام 1925 ) .

ولم تكن اية مدينة من المدن لتخلو من عائلات خصصت قسطا من املاكها للاسعاف الاجتماعى وهى الاوقاف المعينة على الحبز مثلا الذى كان يوزع اسبوعيا أو يوميا حسب أهمية الارياح هذا علاوة على الاوقاف الخاصة بالمساجد والمرستانات ومعاهد التعليم التى كان يتعيش منها عدد كبير من المستخدمين زيادة على رواتب العلماء والطلبة واذا اعتبرنا ان كل مدينة مغربية كانت تتوفر فى كل حى من احيائها على عدة مساجد باوقافها لمسنا ضخامة الثروة الحبسية فى المغرب ويكفى ان نعلم ان فى فاس وحدها احصى فى زمن المنصور ومحمد الناصر الموحدين ( I ) 785 مسجدا و 42 دارا للوضوء و 80 سقاية عمومية و 43 حماما ، ( زهرة الآس ص 33 ) وكلها حبسية -

وكانت فى المغرب أوقاف من نوع خاص (2) كالتى تصرف على الزوجين الفقيرين بايوائهما مجانا فى منزل مؤثث ابان الزفاف وكالتى تنفق فى تجهيز العروس المعوزة واوقاف الاواني المكسرة وتعهد وتغذية الحيوانات والطيور ( كدية البراطيل بفاس ) وذلك بالإضافة الى تاسيس الاسوار والقناطر والقنوات والسهر عليها والشبه هنا

---

(I) وذكر ابن القاضى فى الجذوة أن مساجد فاس كانت قبل انيوم 785 وأما اليوم ( عصر المنصور السعدى ) فلا تحصى كثرة وعدد حماماتها قبل انيوم 93 وأما اليوم فلا عدد لها ( ص 28 ) .

(2) وكانت هنالك أحباس من نوع خاص فى كل من المغرب والاندلس فقد ذكر صاحب نشر المثنائى ان من احباس جامع الاندلس قراءة التفسير بالفخر الرازى (جI ص20) وان كراسى العلم فى التفسير وقراءة صحيح مسلم وابن الحاجب وصغرى السنوسى والرسالة ونظم ابن زكرى لها أحباس (جI ص38) ومن أحباس فاس استيفاء ابن حجر على الصحيح فى التدريس ( نيل الابتهاج ص 169 ) وكان بعض العلماء لا يأكلون من مال الاحباس مثل سيدى عبد القادر الفاسى (السلوة جI ص310).

ملحوظ بين المغرب والشام حيث توجد نفس الانواع من الاوقاف (I)

ويمتاز المغرب ومصر بصندوق حبسي للقرض بدون فائدة وكان موجودا بفاس

وأهم ما يسترعى نظرنا في هذا الهيكل المحكم ، هو ان الوقف لم يتخلف تقريبا في اقليم من الاقاليم التي غزاها الاسلام ، بمبادئه السامية ، وتشريعاته المثالية ، فحتى في اقصى بخارى والتركستان تفرعت الهيئات الحبسية ، وتضخمت مواردها طوال قرون الى ان انهزم التتر فاغتصب الروس هذه الاموال واستمرت الحال على هذا المنوال الى ان قرر الحزب الشيوعي عام 1921 تامين الاوقاف - باستثناء ما يمس المساجد - وتسليم الاراضي الحبسية الى الفلاح المسلم وغير المسلم ، او تحظير كل وقف جديد

وفي الافغان أهم الامير عبد الرحمن الذي توفي اوائل القرن الميلادي الحالي قسما كبيرا من الاوقاف ، وادرجها في ميزانية الدولة ، واصبح الائمة والمؤذنون يحتسبون اعمالهم لله بدون مقابل ، الا اكتتابات المصلين ، وتساهم الحكومة والبلديات في تعهد المساجد

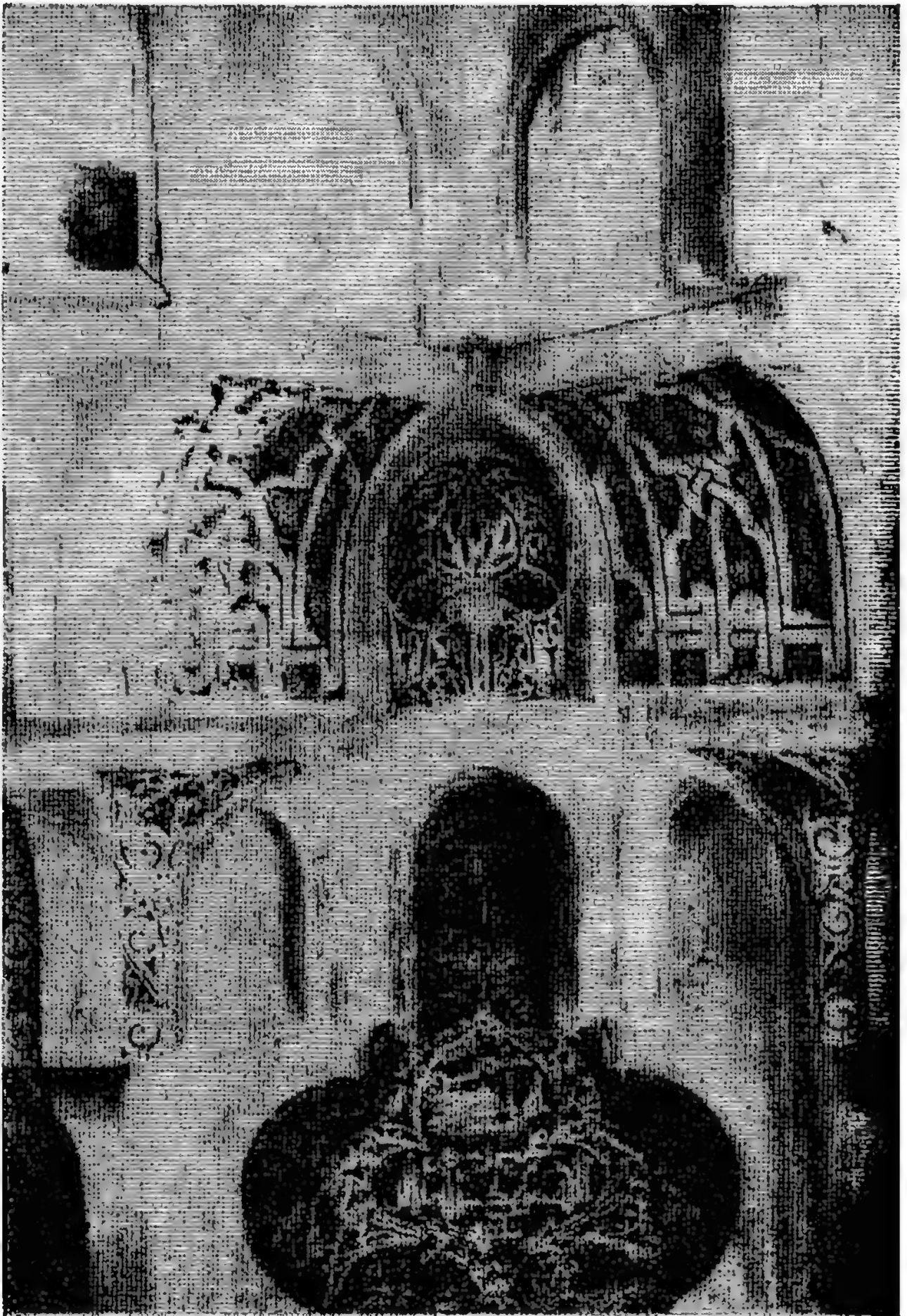
اما في اندونيسيا فانها تمتاز بظاهرتين اثنتين : اولا قلة الاوقاف العقارية نظرا لانعدام الملكية الفردية في معظم النواحي ، وشیوع ملكية الجماعة او القرية ، بحيث لا يملك الافراد حق التوقيف . ثانيا : لا توجد ادارة مركزية للاوقاف

وفي الباكستان تكثر الاوقاف خاصة في القسم الشرقي الذي هو المينغال ، حيث يشرف رجال الافتاء على الاوقاف باعانة لجنة يشارك فيها مندوب عن الحكومة اذا كان الوقف مهما . ورجال الدين مستقلون عن السلطات العمومية ولا توجد اية هيئة مركزية تنسق المسائل الدينية والواقع ان دولة الباكستان الفتية ما زالت في طور الاختمار والاصلاح فقد اصدر المجلس التشريعي في البنجاب ، اوائل 1952 قانونا ينص على صرف ريع الاوقاف ( لصالح التقم والصحة وضمان اتفاق موارد الاحباس فيما وضعت لاجله )

وفي اليمن يرجع امر الوقف لبيت المال الذي يتحمل نفقات المؤسسات الدينية ، اما الاوقاف المعينة للاضرحة ، فان عليها نظارا خصوصيين يعينهم جلالة الامام ويسمون

---

(I) ذكر صاحب جذوة الاقتباس ان كثيرا من اوقاف المساجد ادخلها أهل فاس في منافعهم وحبسوها من اموالهم أيام ابن تاشفين فرفعت القضية الى القاضي عبد الحق بن معيشة القرناطي فتوجه الطلب على النظراء والوكلاء في ذلك ومحاسبتهم فأبرزت المحاسبة 80000 ديناراً (ص42) وورد أن الاحباس احتفظت بإدارتها المستقلة الى عهد مولاي عبد الرحمن الذي قرر ضمها الى دوائر المخزن والغنى النظار الخصوصيين للمساجد والاضرحة وعوضهم في كل مدينة ناظرين يعينهما السلطان وقد حاز مولاي سفيظ عند ما بويع بمراكش خمسين الف فرنك من أحباس هذه المدينة .



جامعة القرويين ( القبة الثانية قبالة المحراب قبل اصلاحها عام 1952 )  
وقد وقع الكشف عن نقوش وتلوينات مرابطة رائعة

« نظار التراب » وفي يوغوسلافيا كانت الاوقاف خاضعة منذ الاحتلال النمساوى الى عام 1884 الى ادارة تتركب من مسيرين عن الحكومة ، ولجان استشارية ، وكانت الموارد تنفق بالاخص على المعاهد الدينية . على ان انقلابات شتى طرأت فى العقود الاخيرة الى ان صدر فى 5 نوفمبر 1936 - دستور الجامعة الاسلامية - بيوغوسلافيا الذى ضمن للجالية المسلمة فى البلاد استقلالا دينيا يكاد يكون تاما داخل البلاد وخارجها ، فاصبحت هذه الجامعة منذ ذاك تتصرف فى الاوقاف لها ميزانيتها المستقلة وادارتها الخاصة .

والى الاحتلال الالماني عام 1941 كان هنالك مجلسان اقليميان يتركبان من ممثلين جهويين ، ينتخبون لاربع سنوات من طرف جميع المسلمين الذكور البالغين ، ويجتمع هذان المجلسان مرتين فى السنة للمصادقة على الميزانية ، وعلى القرارات الخاصة بالاوقاف ، وينتخب كل مجلس لجنته التنفيذية والادارية وفى كل اقليم وكل قرية تسير شؤون الوقف مجالس ينتخب اعضاؤها لاربع سنوات . ويريع الاوقاف هام فى يوغوسلافيا ، لان معظم المدارس الاسلامية تتعيش منه . وفى عهد تيتو صارت لجان شعبية خاصة تتعهد المساجد . ولجنة العاصمة هى التى قامت بترميم مسجد بلغراد الذى تضرر من الغارات الالمانية

وفى المملكة العربية السعودية لا توجد ادارة للوقف الا فى الحجاز حيث تشرف ادارة عامة على شؤون الوقف ، وتصرف ريعه على المساجد ، وعلى الائمة والمؤذنين الذين تعينهم الادارة المذكورة باقتراح من قاضى القضاة . وهذه الادارة التى لها فروع فى جدة والمدينة والطائف يوجد مركزها بمكة وتتمتع باستقلال مالى ويمنعها الملك اعانة خاصة عند الاحتياج . وهنالك نظار للاوقاف المعينة كما فى المغرب . كما تتشابه فى البلدين مسطرة كراء الاملاك الحبسية حيث يوجب القانون المزداد العلنى ويحصر المدة فى ثلاث سنوات على الاكثر - يمكن تجديد هذه المدة فى المغرب لست ثم تسع - .

وفى تركيا الفت الجمهورية الوقف المعين وفرضت مراقبة دقيقة على الوقف العمومى الذى ارتبط مصيره بالشؤون الدينية وفى عام 1924 صدر قانون انشئت بموجبه وزارة للشؤون الثقافية تابعة لرئاسة الحكومة يشرف المسؤول فيها على المساجد والمعاهد الدينية كما الغى نفس القانون وزارة الاوقاف واحداث ادارة عامة مهمتها تنظيم الاوقاف بصورة تتلاءم مع المصلحة الحقيقية للامة .

وفي مصر (I) كانت نظارات الاوقاف مبعثرة الى ان وحدها محمد علي تحت اشراف ادارة عامة ولكن الاصلاح لم ينجح الى أن أعاد الكرة الحديوي عباس الاول الذي قصر اختصاصات الادارة المذكورة على مراقبة سير النظار واستعزال القاضي لكل من ثبت عليه افعال او رشوة منهم . وقد أسس الحديوي اسماعيل وزارة الاوقاف وعوضها الحديوي توفيق بإدارة عامة تخضع للسلطان مباشرة وذلك مخافة تدخل انجليزى فى شؤون الوقف اذ ظل تابعا للحكومة ابان الاحتلال . وقد اعيد نظام وزارة الاوقاف عام 1946 كما أصبح المجلس الاعلى للاوقاف - متركبا من وزير الاوقاف كرئيس وشيخ جامع الازهر ووزير الاشغال العمومية ووزير الصحة ووزير المالية ورئيس لجنة النزاعات التابعة للدولة ونائب كاتب الدولة فى وزارة الاوقاف ومفتى مصر . وهذا المجلس هو الذى يتكفل بتحضير الميزانية وتقرير الاعتمادات والمصادقة على أعمال الترميم والبناء والتجديد والاقتناء والبيع والعقود التى تزيد قيمتها على 1500 جنيه وللوزارة مصلحتان: فى مكة والمدينة لمراقبة احوال الحرمين وقد بلغت مداخيل الاحباس المصرية 180 163 4 جنيه ومصاريفها 192420 3 جنيه عام 1950 - فى حين ان مداخيل الميزانية العامة ومصاريفها تبلغ 157 800 000 جنيه و 187 500 000 - وتتعهد الوزارة بعض المستشفيات وملاجىء العجزة والايتماء حيث كانت تثبنى فى القاهرة وحدها 600 يتيم كما تخول منحا لطلبة الازهر ومنذ عام 1943 اصبحت تقرض ذوى الحاجات بدون فائدة .

وفي سوريا تشرف على الوقف ثلاث هيئات ، هى الادارة العامة للاوقاف ومجالس منتخبة خاصة فى المحافظات والنواحى والمجلس الاسلامى الاعلى الذى يوجد مركزه فى العاصمة . أما مجالس المحافظات فانها تتركب من ستة أعضاء فيهم عالم وقاجر وملاك ومتمول ومهندس وخبير فنى ومحام وكلهم منتخبون وقد بلغت ميزانية عام 1949 ، 2100000 جنيه سورى - وقد منحت الدولة للاوقاف فى نفس السنة 544000 جنيه ، وفى لبنان يوجد وضع خاص نظرا لتشعب الملل والنحل هناك . ولكن حكومه لبنان اقتبست عام 1947 من النظام المصرى

(I) كانت ثلاثة ارباع الاراضى الزراعية فى تركيا العثمانية كلها فى ملك الاوقاف وتدل الاحصائيات المصرية لعام 1935 على أن سبيع الفدادين المزروعة فى ملك الاحباس وبلغت المحبسات الجديدة ما بين سنتى 1930 و 1935 نحو الخمسمائة و 8000 هكتار من الارض وكان عدد المتمتعين بارباع الاوقاف 70,000 نسمة وقد بلغت ميزانية الاوقاف عام 1934 و 1935 ( وهى فترة الازمة الاقتصادية ) 1.570,000 جنيه ووصلت مداخيل وقف الاسرة المالكة الى مليون جنيه وقد ألغى الوقف المعين أو الخاص فى سوريا عام 1949 وفى مصر عام 1952 فى حين ضوعفت مراقبة الاوقاف العمومية نظرا لرسالتها الاجتماعية .

وفي الاردن تأسست عام 1946 ادارة مركزية للاوقاف مستقلة عن الهيئة المركزية للشؤون الدينية ، وهي تابعة لرياسة الوزارة ، وتتركب من مجلس اعلى ومدير عام ومراقب عام للحسابات وأمين وموظفين ولجن محلية

وفي العراق كذلك تشرف على الاوقاف هيئة يرأسها مدير عام ويعينه مفتش عام مكلف بالشؤون المادية والادارية ، الا ان لجان هذه الادارة العامة المنظمة للاوقاف ، تتركب من مديرين محليين في 14 ولاية ومأمورين للاوقاف . والاوقاف ميزانية خاصة يصادق عليها البرلمان مثل الميزانية العامة

وقد بلغت ميزانية الاوقاف 472000 دينار عام 1951 بينما بلغت الميزانية العامة 25 مليون دينار

وفي ايران توجد بوزارة المعارف ، ادارة عامة للاوقاف ، وفي الاقاليم والولايات مديرون وتندرج ميزانية الاوقاف في ميزانية المعارف العمومية ، ويراقبها المفتشون العامون التابعون لهذه الوزارة

اما في المغرب العربي ، فان الانظمة تتسم كذلك بطوائج خاصة ، ففي طرابلس توجد ادارتان جهويتان للاوقاف ، وفي كل الاقليمين مجلس يتركب من رئيس وثلاثة مستشارين ، ومدير، تعيينهم السلطات الحكومية بعد استشارة القاضي وتتصرف هذه المجالس في شؤون الاحباس تحت مراقبة المحاكم الشرعية ، ولكل مجلس ميزانية مستقلة ، تصادق عليها الحكومة وتراقب تنفيذها مصالح المالية الحكومية

وفي الجزائر ( الشمالية على الاخص ) ادمجت الاملاك الحبسية ضمن املاك الدولة بعد الاحتلال واصبحت الدولة الفرنسية تعتبر نفسها المخطط النهائي الذي ترجع اليه الاوقاف المعينة بعد اندراس المعقب عليهم . ورغم ما تقرر عام 1947 من فصل الشؤون الدينية عن شؤون الدولة ، فانه لم يحدث اي جديد في الموضوع وتولى الحكومة بعد الاستقلال عناية خاصة بالاوقاف حيث شكلت وزارة للاهتمام بشؤونها

وفي تونس ادمجت الاوقاف في ميزانية الدولة بعد اعلان الاستقلال وكانت ادارة الاحباس تتركب من مجلس اداري وادارة مركزية ، وادارة محلية ومتصرفين في الاوقاف . والكل يخضع لمراقبة المجلس الاعلى للاحباس

وكان يشرف على الادارة الحبسية منذ 1944 رئيس المجلس الاداري ، الذي يعينه نائبان ، احدهما يسير المصالح الادارية والآخر المصالح المالية وينقسم الجميع الى عدة مكاتب مثل المكتب العقاري ، ومكتب النزاعات ومكتب التسيير ومكتب الزياتين ومكتب الاحباس المعينة ، ومكاتب الحسابات والميزانية ، والاحصاء والتوزيع والاصلاحات والتمميمات



وكانت الادارة المحلية تحتوى على 14 مفتشا او نائبا يمسكون سجلات الاملاك  
الحبسية

ومن هذه العجالة ، تتضح الاهمية القصوى ، التى تتسم بها الاوقاف فى مختلف  
مناحي العالم الاسلامى



صفالة الصويرة بمدافعها وبرج المنار ( الفئار ) الذى تستضىء  
به السفن فى طريقها الى مدخل المرفأ



## الفصل الثالث :

# الاسلام في المجتمع البربري

كتب الاجانب عن البربر وتقاليدهم كثيرا من المصنفات وتقدموا بثنتي الاطروحات في هذا الموضوع الذي اكتشفوا فيه مادة وافرة لتطعيم سياسة التفرقة بين العرب والبربر ولكن بالرغم عن الحاجز المكثيف الذي أقيم بين الجبل والسهل وعن المناطق الحرام المصطنعة وعن الدسائس التي حيكت لفصل البربر عن الشريعة بدعوى أن لهم عرفا يتمسكون به ولا يريدون به بديلا بالرغم عن هذا وذاك تمخص الكفاح - كفاح الجبل والسهل - عن رجوع الوحدة الى مجراها وعن استقلال بنى أسسه ويدعم اليوم مستقبله العرب والبربر معا

ان الاسلام كان دائما الدعامة الكبرى والعروة الوثقى التي تربط بين أجزاء المغرب وتوحد في جنباته المتباعدة لا المظاهر السطحية فقط لان المظاهر لا تعين كثيرا - ولكن الروح والذهنية اللتين هما المرأة الحق لنفسية الشعب ومثله العليا .

جلس الملوك المرابطون والموحدون والمرينيون على عرش المغرب وهم برابرة فكان اول عمل قام به المثلثون هو - كما يقول ابن ابي زرع « رد احكام البلاد الى القضاة واسقاط مادون الاحكام الشرعية » ( ج 2 ص 37 ) بل « عدم القطع في أى أمر دون مشاوررة الفقهاء » الذين هم ممثلو الشريعة ( المعجب ص 102 ) وبأدروا في نفس الوقت الى الانضمام لدار الخلافة العباسية اعلاء لكلمة الاسلام وتوحيداً لربعه المتناثية وكاد يجمع المؤرخون - حتى المتصعبون منهم للنصرة البربرية - على أن الفكرة الاسلامية كانت هي العامل القوى في بناء « الامبراطورية » المغربية التي امتدت من السودان الى برقة وقشتالة بالاندلس ولم يتمالك بعض هؤلاء المؤرخين عن اظهار حنقهم ضد البربر لكونهم « لم يشعروا بتقاليدهم الخاصة ولكون ملوك أمازيغ لم يستطيعوا التعرف الى المشاكل التي يثيرها العالم البربري ولم يحاولوا تحقيق وحدة جنسهم المعنوية » نعم « قضى هؤلاء الملوك المرابطون والموحدون - باعتراف المؤرخ طيراس - على بقايا رواسب الوثنية في الاطلس والريف والسهول البربرية وقطعوا اشواطاً كبرى في بث الروح الاسلامية في النفوس والتمسك بالشريعة »

وقد أكد الاستاذ « اوبان » في كتابه « مغرب اليوم » أن الاسلام حمل معه عاملاً

ثمينا للوحدة في كل بلد اعتنقت الدين الجديد وهذا العامل هو العربية التي هي لغة الدين ولغة الحضارة » وقال في موضع آخر : « لا يوجد سوى رابطتين يمكنهما جمع أشتات هذه الذرات المتناثرة » وتكوين دولة : وهما رابطة الدين المتولدة عن العقيدة الإسلامية والرابطة السياسية التي يتمخض عنها تطور المغرب التاريخي ذلك التطور الذي يحيل الجامعات المشتتة الى سلطة مركزية ..

وقد تغلغلت « أداة الفكر العربي ولغة القرآن في أعرق قرى الاطلس حيث يتلو الصبيان القرآن ويتبعه الناس في صلواتهم عن طريق المغربية وقد أكد روبير مونطاني الذي قام بتحقيق في هذه النواحي أن البربر « نقلوا الى لهجاتهم من اللغة العربية كل ما يتصل بالدين والسياسة والآداب والمجاملات والاضيفات ( ثورة في المغرب ص 372 )

على أن كثيرا من القبائل التي تلهج بالبربرية هي من أصل عربي ويكفي أن نعلم أن في الاطلس وسوس والريف قبائل تنتسب الى قريش وهي مع ذلك مزجاة البضاعة في لغتها الاصلية فالمسألة اذن مسألة ملابسات محلية .

أما انتشار الشريعة في الربوع البربرية فقد تحقق نوعا ما في عهد الادارسة ثم في عهد المرابطيين الموحدون والمرينيين وبدأ يفتر بعد ذلك رغم انبثاق السعديين وحتى العلويين باسم الاسلام والقرشية من صحراء المغرب الشرقية او الجنوبية وقد حدثنا الحسن بن محمد الوزان المعروف بليون الافريقي عن بعض القبائل البربرية التي زارها في القرن العاشر فلمس رغبة الناس في طبع مظاهر حياتهم بالطابع الاسلامي واستعداد البربر لا يواء حملة الشريعة الاسلامية الذين تنقلهم المصدف الى قراهم وتمنياتهم بالمال وقد حكموا ليون الافريقي نفسه في نزاعاتهم وفي الاطلس الكبير حكى ابن الوزان ان القبائل تصرف أموالا طائلة على قضاة دائمين كما هو الحال في مريسة وفي بني زروال وشيشاوة ، وتينمل وكذلك اُريف ولكن كثيرا من القبائل اضطرت - في مختلف مراحل التاريخ - ازاء انعدام القضاة الشرعيين الاكفاء - الى تحكيم جماعة الاعيان الذين - نظرا لجهلهم بالشريعة - يصدرون احكامهم حسب رأيهم وقد تكونت خلال الاجيال من احتكاك هذه الآراء ومقارنة نتائجها أعراف أحيانا عن الاسلام كما وقع في الارث حيث نخيت المرأة بسبب ما يخشاه البرابرة من تسرب الزوج الاجنبي وتدخله في الملك العائلي والا « فان تجريد المرأة من الميراث لا يستمد - كما يقول سوردون في المؤسسات البربرية ص 213 - من روح معارضة الاسلام »

ويلاحظ « سوردون » هذا في دراسته للاعراف البربرية انه « لا يوجد تعارض ما بين الشريعة والعرف » على أن الاسلام نفسه يحكم الاعراف المحلية الصالحة « فالعادة عند البربر - كما يقول سوردون - تسمى اما شرعا واما عرفا فالشرع هو العرف العام أما العرف الحقيقي فهو تلك المجموعة من الاجراءات الجنائية والاتفاقات المبرمة بين مختلف الجماعات لتحديد بعض نطق العرف أو تعديلها لا سيما في خصوص

المخازن العامة « أجدير » أو « السواقي » ( ص 281 ) وهكذا يظهر ان العرف العام هو الشرع وهو الذى يطبق فى كافة القبائل التى تتأتى لها وسائل تطبيقه ولكل قبيلة عرفها الخاص ( ص 240 ) وفى وادى درعة مثلا حيث استمر العمل بالعرف « يسمى القانون الخاص غالبا » وكان يطبقه قبل اليوم حكام يدعون قضاة أو مفتين يختارون من بين الطلبة الأكفاء الذين درسوا الشرع الاسلامى وحذقوا جزئياته وهنا أيضا « لم يقع أى تصادم بين الشريعة والعرف » ( سوردون ص 342 ) وهذا المبدأ عام فى مجموع المغرب العربى ففى الاوراسى - بالجزائر - مثلا ، نراهم يستعملون الشريعة الاسلامية وقد احتفظوا مع ذلك بأعرافهم الخاصة التى تستمد وجودها من الملابس الجغرافية الشبيهة بما فى اسوس او الاطلس الاوسط بحيث نرى بلاد الشاوية الجزائرية تلتجئ فى فض نزاعاتها العامة الى القاضى المالكى وفى الخلافات الخاصة الى اعيان الجماعة ( ص 395 ) وهكذا نرى المغرب العربى منقسما شطرين كلاهما يستمد من روح الشريعة الاسلامية فالمذهب المالكى الذى يتميز به نحو 70 مليونا فى العالم الاسلامى يطبق فى حواضر المغرب العربى وكذلك فى القبائل التى يتأتى لها الاتصال بهذه الحواضر أى فى نصف افريقيا الشمالية تقريبا بينما يتركز العرف الممزوج بالفقه المالكى فى الشواحق ..

وهذه الملابس الخاصة هى التى حدث ملوكنا الى احترام الاعراف المحلية لانها فى الحقيقة تساير روح الاسلام وقد لوحظ أن كثيرا من الاعراف المحلية صادق عليها الملوك باقتراح من الاشراف المحليين واهل الدين كالظهير الحسنى الصادر فى شأن الاعراف الجنائية بزمور الشلح وكما وقع ايضا فى اداوتنان عام 1106 هـ فى زاوية سيدى ابراهيم وعلى وكثيرا ما ترجع القبائل تلقائيا الى تطبيق الشرع الاسلامى متى تيسرت لها الاسباب فقد نشرت مجلة هسبريس ( ج 18 سنة 1934 ص 46 ) وثيقتين ذكرت أنهما أقدم ما يوجد فى القانون الجنائى العرفى بالمغرب ويرجع تاريخهما لعام 1512 م وقد ورد فى مقدمتهما أنه « بعد التعرف الى الضلال الذى تنطوى عليه الاعراف العتيقة أصبح رئيس القبيلة يطبق ما ورد فى القرآن الكريم وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم فى خصوص الجرائم تبعا لآية القصاص » وقد نشر لائحة من الديات فالذى كان ينقص النواحي البربرية اذن لتطبيق الشرع الاسلامى هو الوسائل وقد توفرت اليوم بحمد الله بعد اعلان الاستقلال والغاء الظهير البربرى حيث تمكنت وزارة العدل التى تشرف على الاجهزة القضائية بكافة انحاء المغرب - أن توحد النظام القضائى على أسس تستمد من الشريعة الاسلامية الصالحة لكل الاعصار والامصار كما تستمد كل ما يتلام وروح الاسلام مما تنطوى عليه الاعراف المحكمة والقوانين



مخزني من حشم القصر الملكي

العالمية (I) وهى مهمة شاقة جدا ومسؤولية خطيرة ولنا فى الاقطار الاسلامية الاسوة  
الحسنة حيث نجد فى القضاء المصرى مثلاً ، ذلك النوع من التناسق المطبوع بطابع  
الاسلام ومن المرونة التى تتسع لكل جديد صالح

f

---

(I) نقل ابو الوليد محمد ابن عبد الله بن خيرة فى تعليقاته على النهاية شرح  
الهداية ان طلبه العلم من الافرنج الذين كانوا يسافرون الى غرناطة لطلب العلم اهتموا  
كثيراً بنقل فقه الاسلام الى لغتهم لعلهم يستعملونه فى بلادهم لرداءة الاحكام فيها  
خصوصاً فى المائتين الرابعة والخامسة من الهجرة ومن هؤلاء هربرت والبرت اللذان  
طلبوا مساعدة العلماء لابرار مقصدهما فساعدوهما على تدوين الفقه كاملاً وحوروه الى ما يوافق  
بلادهم ولذلك نرى احكام القوانين والقضاء لا تزال رديئة وسيئة فى العدة الشمالية  
وهربرت هذا هو البابا سلفستر الثانى الذى يقال انه درس فى القرويين .

## الفصل الرابع :

### الحالة المدنية

العرب من اشد ان لم نقل اشد الشعوب اعتناء بالانساب وقد انتظمت عندهم هذه الانساب حتى اصبحت المعرفة بها تكون علما له قواعده ونواميسه والمختصون فيه وفي هذا العلم كانت تتجلى مقدرة العرب على الاستذكار والوعى حيث تجد الرجل يعرف عن كل عائلة من قبيلته وحتى عن بعض القبائل الاخرى حلقاتها السلالية بما يتصل بها من اسماء وتواريخ ومميزات .

والحالة المدنية تشمل ثلاث مراحل في حياة الفرد فهناك سجل للمواليد وآخر للانكحة وثالث للوفيات فلننظر الى اى حد كان هذا الثالوث محفوظا عند العرب وبأية وسيلة حفظ ؟ فهناك قضية لا نشك فيها وهي ان العرب وان لم تكن لهم فى الاغلب اساليب عمومية منتظمة لتسجيل الحالة المدنية فقد كانوا يضبطون هذا التسجيل فى اطار عائلي مما ساعد رجال التراجم والتاريخ على اثبات كل ما يتصل بعلماء الاسلام وشعرائه وفقهائه وفلاسفته وباقي العظماء من احداث بتواريخها الدقيقة .

ولكن ينسب الى معاوية بن ابي سفيان الذى امتدت فى عهده حدود المملكة الاسلامية وغزا بلاد الروم بألف وسبعمائة سفينة - نوع هام من تسجيل الحالة المدنية لا سيما فى مصر حيث جعل على كل قبيلة موظفا خاصا يدور كل يوم على مجالس القوم فيسألهم هل ولد لهم مولود وهل نزل بهم طارق فيسجل لفلان غلام ولفلان جارية مع اسميهما وكان هناك ديوان خاص يرجع اليه اولئك الموظفون الجهويون لتسجيل اسماء المواليد وبهذا كانت الدولة تحصى عدد السكان ولا يفوتها خبر من ينتقل فى ارجاء البلاد وكان الى جانب ذلك سجلات للجند بالخصوص .

وهذه الروح المركزية كانت قوية منذ صدر الاسلام فقد ورد فى كتاب التاج المنسوب للجاحظ ان عمر كان علمه بمن نأى عنه من عماله ورعيته كعلمه بمن بات معه فى مهاد واحد وعلى وساد واحد فلم يكن له فى قطر من الاقطار ولا ناحية من النواحي عامل ولا امير جيش الا وعليه له عين لا يفارقه وما وجده فكانت الفاظ من المشرق والمغرب عنده فى كل ممسى ومصبح .

وكانت هنالك وسائل رسمية وعائلية لحفظ اركان الحالة المدنية لا سيما قسم

الانكحة والوفيات المتصل بالارث فكانت سجلات المحاكم الشرعية لا تزال مرجعا موثوقا به فى هذا الباب ولكم من سلالات امكن ربط حلقاتها بعد قرون عديدة بمجرد الرجوع الى رسوم عائلية كثيرا ما تنضبط فيها تواريخ الموالد والوفيات وغيرها وكان فى العائلات علاوة على رسوم متوارثة ما يسمى بشجرة النسب وكانت العائلات قبل اليوم تعنى عناية كبرى بهذه الاشجار فتضبط ما يتفرغ عن اصولها على تعاقب الاجيال وما يتصل بهذه الفروع من تواريخ وتكن هذه العناية فترت فى القرن الاخير حتى انصرم حبل كثير من السلالات بظهور حلقات مفقودة وتواريخ غير مضبوطة بينما كان يندر فى القرون الماضية ان تقلت لاسرة من الاسر حلقة من الحلقات فى سلسلتها السلالية وقد استولت علينا فى العصور الاخيرة روح لم يكن آباؤنا يانسونها وهى اعتمادنا على الذاكرة واهمالنا التسجيل ( وقد يكون لظهور الطباعة اثر فى فتور همة التخطيط عندنا ) بحيث كثيرا ما اصبحت اهم الاحداث فى تاريخنا المعاصر تضيع بالنسبة للدولة وحياتها وبالنسبة للأفراد وكانت لنا الى نهاية القرن الماضى كنانيش تسجل فيها حالة الجنود المدنية غير انها لم تكن عامة ولا منتظمة ومع ذلك فقد ظلت روح الاحصاء بشكلياتها المملة متغلغلة فى الفكر العربى حيث نجد المؤرخين يدلون بارقام مضبوطة يستندون فيها الى سجلات الدولة او بعض الاحصائيات الفردية فقد احصى فى فاس ايام المنصور والناصر الموحدين وكذلك فى قرطبة ايام الناصر الاموى عدد الدور والمساجد والحمامات والقنادق والارحاء والمصانع وحتى عدد المصابيح فى بعض المساجد وعدد الكتب والمخطوطات فى الخزائن المهمة والشواهد على ذلك مختلفة واحصى عدد سكان المغرب فى القرن العاشر فى الحواضر والبادى مع عدد المدن الذى وصل اذ ذاك الى مائتين وخمسين ويروى ان المولى اسماعيل عمد الى احصاء عدد السكان فى بعض النواحي وهو الذى كان يضبط سجل عناصر جيشه بما يتصل بمراحل حياتها ضمن الجيش ولكن هذه الروح فترت حتى كادت تتلاشى بالمرّة .

وبالجملة فان حفظ الحالة المدنية كان يجرى فى الامم العربية غالبا على هامش الاطار الادارى الذى لم تكن فيه سوى سجلات خاصة بطبقات من الشعب دون غيرها ومع ذلك فالانساب عند العرب وكذلك مراحل حياة الافراد كثيرا ما كانت تنضبط بدقة .

## الفصل الخامس :

### سكان المغرب

يتعذر على الباحث ان يرسم صورة كاملة عن عدد سكان المغرب فى مختلف مراحل تاريخه ولكن هناك وثائق كثيرة تعطينا نظرة تقريبية عن عدد هؤلاء السكان فى بعض العصور فلنستعرض ما سجلته تلك المستندات ولنقس المجهول بالمعلوم محاولين سند بعض الفراغ فى هذه المسألة الشائكة :

ذكر عدة مؤرخين عرب ان سكان الرباط فى القرن الثالث أى قبل تأسيسها بثلاثة قرون كان ينيف على المائة الف وكانوا كلهم مرابطين لاقرار لهم تاتى افواج وترتحل اخرى فى تجدد مطرد وكانت الرباطات فى ذلك العهد اهلة بالمجاهدين ومنتشرة على طول الساحل . وقد بلغ عدد سكان مراكش عاصمة المرابطين أيام على بن تاشفين نحو المائة الف نسمة وانحط هذا الرقم الى ثلاثة عشر الفا أيام الحسن بن محمد الوزان ( اوائل القرن العاشر ) الذى اثبت المرقمين معا فى رحلته .

واذا عرفنا عدد سكان مدينة واحدة امكنا أن نقيس فنستخرج رقما تقريبا لسكان مجموع المدن التى كان عددها ينيف على المائتين هذا علاوة على عدد سكان البادية والجبل ، اما فى العهد الموحدى فان رقعة المغرب قد اتسعت فتضخم بذلك عدد الرعايا المغاربة بالنسبة للعصر السالف وقد أمكن لعبد المومن بن على ان يجمع فى بسيط سلا وحده ثلاثمائة الف من المجاهدين وفى أيام المرينيين زار المغرب رحالة انجليزى وطاف على مختلف انحائه فقدر عدد سكان عاصمة فاس وحدها بمليون نسمة وليس هذا الرقم ببذخ اذا علمنا ان مدينة فاس كانت اذ ذاك عاصمة المملكة ومهبط رواد العلم والمال والجاه وقد ورد ان عدد سكان عاصمة قرطبة بلغ نصف مليون أيام الناصر بل ان سكان بغداد تجاوزوا مليونين اثنين أيام الرشيد وقد اصبحنا نسمع فى السنين الاخيرة ان عدد سكان بعض كبريات العواصم يبلغ العشرة ملايين او يزيد وقد اورد الحسن بن محمد الوزان فى رحلته مجموعة من الارقام جاء فيها ان المجاهدين العرب وحدهم بلغ عددهم فى عصره 694 الفا من المشاة و 65.300 من الفرسان وان جنود البربر بلغ عددهم فى اثنتين وثلاثين قبيلة 463.600 وكانت هنالك ثلاث واربعون قبيلة اخرى ينوبها من الجنود نحو 622 الفا فيكون المجموع مليوناً وخمسة



## وثمانين الفا وستمائة جندى .

واذا طبقنا نظرية المؤرخ كاريط القائلة بأنه اذا ما زيد على عدد الجنود رבעه ( الذى يمثل الزمنى والمرضى ) كان ذلك ثلث مجموع السكان امكننا أن نقدر عدد سكان القبائل العربية فى المغرب ( اوائل القرن العاشر ) بـ 2.850.000 والقبائل البربرية بـ 4.071.000 فيبلغ مجموع عدد سكان البدو ما يناهز سبعة ملايين نسمة . وورد فى رسالة كتبها فرنسى من المغرب لاحد مواطنيه أيام المولى اسماعيل ان المغرب كان فيه اذ ذاك 250 مدينة اصغرها لا ينقص عدد سكانه عن ثلاثين الفا وكان بفاس وحدها ( ستة عشر مائة الف نسمة ) على حد تعبير الراهب أى مليون وستمائة الف من السكان وهذا الرقم يعضده ما نقلناه عن الرحالة الانجليزى اعلاه .

واذا كانت فاس تسع هذا العدد من الناس فان كبريات العواصم الاخرى - لا سيما منها عاصمة المولى اسماعيل ملك ذلك العهد - تؤوى على الاقل مائة الف نسمة على اننا اذا قدرنا معدل سكان المدن المغربية بخمسين الفا للواحدة فان مجموع سكان المدن يبلغ اثنى عشر مليونا ونصف مليون زيادة على المليون والستمائة الف التى بفاس فيكون الجميع نحو الاربعة عشر مليونا فى المراكز الحضرية وحدها فاذا اضفنا الى ذلك السبعة ملايين من البدو ( الذين اثبت وجودهم بالمغرب الحسن بن محمد الوزان قبل هذا العهد بنحو القرن ) صار الجميع واحدا وعشرين مليونا ولاشك أن فى هذا الرقم شيئا من التسطط ولكن ليس هنالك ما يدحضه على اننا اذا فرضنا ان معدل سكان المدن بلغ 30.000 نسمة فقط بدل 50.000 امكننا ان نصل بمجموع عدد السكان الى ما ينيف على ستة عشر مليون نسمة وهو رقم مقارب لما لوحظ اواخر القرن المنصرم .

وقد ذكر المؤرخ الفرنسى دوفونطان ماكسانج فى الكتاب الذى صنفه حول المولى اسماعيل ان الوباء الذى اجتاح اوربا فى القرن السابع عشر ( أى الحادى عشر الهجرى ) اخلى مدينة روان الفرنسية ثلاث مرات ( 1619 - 1623 - 1667 ) واستاصل شافة سكان سارلات عام 1634 ورينس عام 1640 وتوالت على باريز خمسة اوبئة فى ظرف خمسين عاما اهلك احدها ازيد من اربعين الف نسمة فى العاصمة الفرنسية وقد انتشرت عدوى هذا الوباء الوبيل فى المغرب آتيا من اوربا فبدأت بتطاون حيث بلغ عدد ضحاياها - على ما يقال ولعل فى ذلك مبالغة - 25 الفا خلال عامين وفى القصر واصيلا 32 الفا وفى مكناس 52 الفا اثناء ثلاثة اعوام وفى فاس خلال نفس المدة 85 الفا وفى سلا فى ظرف عامين اثنى عشر 18.000 وازمور ثمانية آلاف وتافيلالت ونواحيها سبعين الفا ولم يهدأ تيار الوباء الا عام 1681 بعد ان قضى فى المغرب وحده على نحو الاربعة ملايين ومع ذلك فقد ظل المغرب مائجا بالسكان بالرغم عن هذا الطاعون الذى هبت سمومه من اوربا حيث عجز الطب عن ايقاف تياره وقد انتشر بالمغرب فى ذلك العهد



(4)

الضارب على الكنبري

من الامراض التي كانت معروفة باوروبا كالمرض المسمى بمرض الدنيا والمرض الكبير ومرض النسا وسمى ليون الافريقي هذا المرض بالمرض الاسباني او الفرنسي .

وكان معدل اعمار سكان المغرب يتراوح بين 65 و 70 سنة بل كان يزيد في الجبال الاطلسية ( حيث الهواء الطلق ) على المائة عام وقد أيد المؤرخ كيون هذا العدل مستندا الى وثائق يرجع عهدهما للعصر الروماني ولا يخفى ان المرابطين والموحدين والمرينيين اهتموا كثيرا بحالة المغرب الصحية فاكثروا من المارستانات وجهزوها بكامل المعدات ووسائل الراحة وكانت في ارباض عاصمتي فاس ومراكش مراكز لايواء المجذومين كما كان في عاصمة الموحدين ماستان لا يقل فسي سعة مرافقة وجودة اجهزته واقتدار اطبائه عن كثير من مستشفيات العصر الحديث وقد قام المولى اسماعيل خلال الوباء المذكور بدور خطير في تخفيف لوعة البؤس وتحديد خطر الطاعون الداهم.

على ان من اهم العوامل التي كانت تحفظ التوازن الصحي في البلاد قلة ان لم نقل انعدام الحمور والامراض التناسلية مع تمكن صفة القناعة من معظم السكان لا سيما في البادية والقناعة اخت الحمية والحمية رأس الدواء ولكن الدسائس التي بدأ الاجانب يحيكونها بقوة واستمرار خلال القرنين الاخيرين قد اثرت في عوائد البلاد فشاع الترف وانتشرت المواخير في طي الحفاء وكثر البغاء وعمت امراض داخلية لم تكن معروفة من قبل فتضخم عدد الوفيات وتناقص بسبب ذلك عدد السكان حتى بلغ خمسة عشر مليونا في القرن الماضي - فيما يروى - وهو يبلغ عشرة ملايين الآن .

ف

القسم الثاني:

المظهر الحضاري الاقتصادي

## الفصل السادس :

### الاقتصاد في الف عام

يظهر أن المغرب عرف - خلال عهود السيطرة الاجنبية - فترات من الفوضى يستعصى وصفها فلم يحاول الفنيقيون ولا القرطاجنيون ولا الرومان - كما يقول ميشوبيلير في محاضراته - ابتداء شيء من النظام لجعل حد لهذه الفوضى فقد استنزفوا خير البلاد جهد المستطاع صارفين نظرهم الى خيراتها اكثر من اعتنائهم باهلها ويلوح أن سكان النواحي التي خضعت مباشرة للسيطرة الرومانية والبيزنطية كانوا في حالة اقرب الى الاسترقاق يرضخون لقسى انواع التسخير ولاشد التكاليف ارهاقا ، واذا كانت افريقيا الشمالية قد استطاعت في كثير من الاحايين أن تستفيد من بعض مبتدعات القرطاجنيين في الميدان الفلاحي وأن تضمن بشق الانفس استهلاكها الداخلي . فان افريقيا الرومانية كانت كلها في ملك خمسة من كبار الشخصيات الرومانية - حسب بلين - وكان اكبر ملاك عقارى هو الامبراطور نفسه ، « وأمسيت البلاد عبارة عن حقل شاسع يستغل استغلالا كليا » ( أندري جوليان ) لهذا رأينا أنه عند ما حمل عقبة بن نافع الاسلام الى المغرب للمرة الاولى عام 6٦١ هـ ( 680 م ) تقبل أضعف الناس هذا الدين الجديد بمثابة خلاص من الجبايات المرهقة ، ذلك ما لاحظته ميشوبيلير الذي قارن بين مفعول الاسلام ومفعول المسيحية في الربوع الافريقية فأكد أن المسيحية لم تحمل الى افريقيا على ما يظهر سوى الحروب الدينية والاضهادات والنزعات الطائفية ولعل ذلك هو ما سماه الاستاذ طيراس « بالنظام اللاتيني والمسيحي »

وهكذا استقبل المغاربة الفاتح العربي كمحرر لا سيما وأن العرب حملوا معهم كما يقول كوتبي « حكومة نظامية مجهزة بجميع الهيئات العسكرية والادارية » ولكن الكاهنة اليهودية نشرت الدمار والحراب في بلاد كان الناس يمشون في ظلال أشجارها فأثارت ضدها المزارعين والحضرين معا

وفي عام 85 هـ تم اسلام مجموع المغرب واستطاع القادة العرب تفهم البيئة البربرية لا بين العالمين العربي والبربري من تشابه في الجهاز الاجتماعي والقوام الاقتصادي وعاش الجانبان فترة يسيرة في وئام كدر صفوه عامل طنجة عمر بن عبد الله المرادي الذي أراد تخميس البربر خارقا بذلك مبدأ المساواة حيث اعتبر البربر فيثا

للمسلمين ، فثار البربر عام 1222 بقيادة ميسرة المدغرى تحت شعار مذهب الخوارج الداعى الى المساواة بين المسلمين ( البيان المغرب ج I ص 52 )

ولكن ما لبث المغرب أن تحرر من القيود الجبائية لا سيما فى عهد الادارسة فتتفلس الصعداء وانطلق الاقتصاد المغربى من العقال الذى كان يخنقه فازدهر وانتظم وأصبح « منطقيا قارا » كما وصفه المؤرخ طيراس

وكان هذا الاقتصاد فلاحيا فى جوهره : سوائم وزروع وفاكهة . واذا استثنينا الصحراء القاحلة نجد أن الجنان والغابات كانت تغطي مقاطعات مترامية الاطراف حتى فى الاطلس الذى وصف ابن خلدون ثرواته الضخمة والذى قال عنه الاستاذ سيليرى بأن جانب النقص فيه هو قلة الارض لا قلة الماء

وكان المطابع الحضري يعوز المغرب قبل الفتح الاسلامى واذا كانت هنالك مدن قديمة وجدها العرب فى المغرب فانها لم تكن حواضر متماسكة كالتى سيعرفها المغرب منذ عهد الادارسة وانما كانت عبارة عن مجموعة مداشر أو « قصور »

فمدينة فاس التى بناها المولى ادريس ( ادريس الاول حسب أبى بكر الرازى وابن سميذ وادريس الثانى حسب بقية المؤرخين ) واتى كانت - فى نظر كوتى - « اية فى الاقتباس من الحضارة الشرقية أسست فى ناحية كانت تعتبر منذ ذاك من أغنى نواحي المغرب وما لبث محيطها الخاص وموقعها فى مفترق الطرق الكبرى قرب ممر تازة - الذى هو أعظم ممر بين افريقية والمغرب - أن جعلها منها المركز الثقافى والاقتصادى للمغرب وكانت هذه هى أولى الخطوات نحو التركيز والتخفيف من عوامل التشتت القبلى .

فقد وجد البربر فى بساطة الاسلام السمع مقومات الوحدة وجواذب نحو الحياة الحضرية التى طعمتها عناصر جديدة هاجرت الى المغرب كالاندلسيين الذين انتقلت منهم الى فاس 800 (I) عائلة حوالى المائة الثانية الهجرية على اثر وقعة الرض ثم 300 أسرة من القيروان التى بناها عقبة بن نافع واتى كانت اذ ذاك ابهى الحواضر الاسلامية فى افريقيا الشمالية

وكان من بين هؤلاء ادباء وتجار ومزارعون مهرة ما لبثوا أن نشروا أفكارا اقتصادية جديدة تمخضت عنها تدريجيا حركة تطورية طبعست مختلف مظاهر الحياة المغربية بطابع طريف لم يكن للقبائل عهد به فى مجتمعاتهم واقتصادياتهم ، نعم ظهرت نواة مجتمع بورجوازي فى عدوة القيروانيين الذين فتحوا قيسارية ودكاكين تجارية

(I) كما ذكره طيراس فى تاريخه وذكر دوزى فى تاريخ المسلمين باسبانيا ان هذا العدد بلغ ثمانية آلاف عائلة (ص301) .

وضربت اول دراهم مغربية عام 185 هـ

وما زال متحف كاركوف بروسيا يحتفظ بدرهم منها كما يوجد في المكتبة الوطنية بباريس درهم ادريسي آخر يرجع عهده الى عام 189 هـ

وقد عثر في ويلي عام 1952 على 231 درهما فضيا ودينار ذهبي وكلها نقود أموية شرقية كما عثر على دراهم أموية يرجع عهدها الى ما بين 79 و 125 وقد لعب الدرهم اذ ذاك دورا مهما في تجارة اوربا نحو من أربعة قرون حيث ظل العملة الوحيدة

وفي هذه الحاضرة الجديدة تجمع الف من التجار فيهم المسلم والمسيحي واليهودي تنافسوا في جلب البندو لاقتناء بضائعهم المتنوعة وكانت هناك حواضر أخرى مثل اصيلا والبصرة التي هدمها ابو الفتوح صاحب افريقية من قبل العزيز بالله عام 368 هـ وكانت تعرف ببصرة الكتان « لانهم كانوا يتبايعون في بدء أمرها أكثر تجارتهم بالكتان » ( المغرب ج 2 ص 133 و 330 )

وقد تمخض هذا الاشعاع الحضارى عن نزوع الى الاستقرار لدى بعض القبائل الرحالة وبذلك اتسم الاقتصاد نفسه بشيء من الاستقرار وظلت الصحراء مسرحا للرعاة الرحالين الذين يتعيشون من تربية السوائم ومن تجارة القوافل بين الواحات وأطراف الصحارى .

وبعد انحلال المملكة الادريسية استمر الامراء الادارسة من الشمال الى الجنوب في اقامة او توسيع حواضر صفرى على نسق فاس نشرت حولها تدريجيا اسباب الحضارة الاسلامية مثل اصيلا وقصر كتامة او قصر عبد الكريم ومدينة جنيارة ( قرب فاس ) وتيكيساس وتيطاون التي ما لبثت الادارسة أن هدموها .

وقد أكد الاستاذ طيراس ان أعمال الرى التي هي ضرورية لكل ازدهار فلاحي ولكل تطور حضري كانت من أهم أعمال الاسر المالكة المسلمة ويظهر أن العهد الادريسي لم يلحق المغرب اثناء ارهاق وقد وصف ابن حوقل ثراء المغاربة الوافر في ذلك العصر .

وفي عهد بنى عامر وبنى زبرى اتسعت شبكة نفوذ الحضارة الاندلسية فبلغ اشعاعها جبال فازاز في قلب الاطلس حيث هاجر بعض القرطبيين .

وكانت سجلماسة مركزا تجاريا تتوارد عليه القوافل من البصرة والكوفة وبغداد كما كانت تصل الى تافيلالت - كما يقول جورج مارسي - قوافل مدينة تلمسان التي تنصب عليها افواج التجار المسيحيين والمسلمين

وقد أكد الجغرافى ابن خردادذ به في القرن الثالث أن التجار الصقالبة الذين كانوا ينتقلون في جميع مناطق العالم كانوا يصلون الى السوس الأدنى عن طريق طنجة ومن هناك يتوجهون نحو افريقية ومصر .



وفى شرق المغرب كانت وحدة التى أسسها زيرى بن عطية واتخذها عاصمة له محاطة بالحداثى والغابات ومنها أرسل ابن عطية الى الحاجب ابن أبى عامر الهدايا الثمينة التى تحتوى على رقيق المنسوج وذكى العطر وتم نادر الوجود على قدر الخيار ،

وفى ايفلى حاضرة سوس كان قصب السكر موفورا حيث حدثنا البكرى أن السكر كان يباع مثقالين للقنطار اذ بربع درهم كان الناس يحملون منه ما يشاءون . وهكذا يتجلى لنا أن المغرب عرف فى القرون الاربعة الاولى للهجرة الوفرة والثراء والطمانينة النسبية .

وقد أكد طيراس أن وجود بعض الضيع منتشرة هنا وهناك وانتشار السكان يدلان على ان المغرب كان يتمتع بالامن الكافى

فعند ما استولى المرابطون على الحكم وجدوا اذن المغرب وفير الموارد هادئا هدوءا نسبيا ولكنهم دعموا وحدة المغرب ووسعوا رقعته وبدأوا احتلال الاندلس الذى امتد منذ ذلك نحو من ثلاثة قرون وكان للتبادل المغربى الاندلسى أثناءه أثره الفعال فى تكيف الاقتصاد الوطنى وتوسيع موارده ومصادره فى دائرة الاشعاع العام المتبادل .

وقد شجعوا - رغم انشاقهم من قلب الصحراء - على الاستقرار الحضرى وبنوا مدينة مراكش على بعد نحو ثلاثين كيلومتر من أغمات التى كانت مركزا لتموين مجموع الصحراء كما ساهموا فى ازدهار فاس وبالرغم عن الاضطرابات العارضة التى تخللت الثورة الصنهاجية « ما لبث المغرب المرابطى ان استعاد هدوءه وأصبح كما يقول طيراس مزدهرا غنيا » -

وقد اتسعت رقعة المغرب من جديد فبلغت طرابلس أيام الموحدين واكتملت بذلك وحدة المغرب والاندلس الى ابعد الحدود ومسحت الاراضى الافريقية دعما للتنظيم الجبائى حتى بلغت مداخل الحراج « وقر 150 بغلا هذا فى افريقية وحدها خلا بجاية واعمالها وتلمسان واعمالها والمغرب » ( المعجب ص 155 ) ولم تكد تمر ثلاثون سنة على اعتلاء عبد المؤمن اريكه الملك حتى « كانت منجزاته تنير الاعجاب » وعمت الرفاهية مجموع البلاد كما يقول طيراس الذى أكد أيضا ان مدن المغرب بلغت من الازدهار ما لم يسبق لها أن بلغت من قبل اما فى الاندلس فان النظام الذى أقره الموحدون فى مجموع البلاد قد جعل حدا - حسبما اوضح ذلك اندرى جوليان فى تاريخ افريقيا الشمالية - للفوضى المالية التى كان يتخبط فيها ملوك الطوائف وقد شجع الموحدون الفلاحة التى كانت ضيع المنارة التجريبية (I) ثم عن ازدهارها حتى وصفها رحالة انجليزى زار

(I) ولما ولى محمد بن واجاج فى أول ايام الموحدين بلاد المغرب غرس بحيرات فكان حب زيتون بحيرة مكناسة يباع الحمل بخمسة وثلاثين ألف دينار ونحوها وحب زيتون بحيرة فاس بخمسين ألف دينار ونحوها وحب زيتون بحيرة تازة بـ 65 ألف دينار ( الروض الهمثون ص 3 ) .

مراكش عام 1741 بانها أجمل بقعة في افريقيا ( دو كاستر ) وازدهرت الصناعة فسي  
عهدهم وأصبحت سبتة في طليعة مراكز انتاج الورق الذي لم يكن يضاهيه جودة سوى  
ورق شاطبة الشهير وقد أحصيت في فاس وحدها زمن المنصور والناصر الموحدين  
3094 من أطرزة النسيج و 47 معملا للصابون و 86 معملا للدباغة و 816 للصباغة و 12  
معملا لتسييك الحديد والنحاس و II معملا للزجاج و I35 مصنعا للجبير و II70 فرنا  
للجبير و 400 معمل لصنع الكاغد (I) علاوة على المطاحن والمعاصر ومعامل الحرف التقليدية  
وكان المغرب يستغل اذ ذاك قسما من ثروته المعدنية مثل معادن الحديد الموجودة بين  
سلا ومراكش ومعادن الفضة قرب مكناس وفي سوس حيث « النحاس والتوتية التي  
يصبغ بها النحاس الاحمر فيصير أصفر » ( المعجب ص 224 )

وفي نفس الوقت أمست مراسي المملكة مراكز لحركة تجارية قوية ومبادلات مع  
بيزه وجنوة والبندقية ومرسيلية وقد أكد اندرى أن المسلمين الذين كانوا حينذاك أول  
من نظم أساليبهم التجارية طبقا لمقتضيات التجارة الدولية قد طوروا انظمتهم التي  
اقتبس منها المسيحيون « وكانت أربعمئة قطعة من الاسطول الموحدي الذي كان أول  
اسطول في المتوسط حسب ( أندرى جوليان ) تمر عباب المتوسط بدون انقطاع بين  
تونس وهران وعاصمة الجزائر لحماية السواحل .

وقد تضاعف التبادل بين المغرب وتونس فتفتقت مظاهر الحضارة ومراسم  
العمارة والاساليب الصناعية وبنيت بين الرباط وسلا قنطرة من الحجارة والخشب  
ومقصورة في مسجد بمراكش انبهر الناس لاساليبها المكانية كما اقيمت قنوات الري  
على يد مهندسين اندلسيين هذا علاوة على الجهاز الاجتماعي النادر المثال مثل مارستان  
مراكش المجهز بالاشجار والبيوت المرحية والفرش والاطعمة والملبوسات والصيدلة  
ثم الاطباء والاشربة والادهان والاكحال ( المعجب ص 177 )

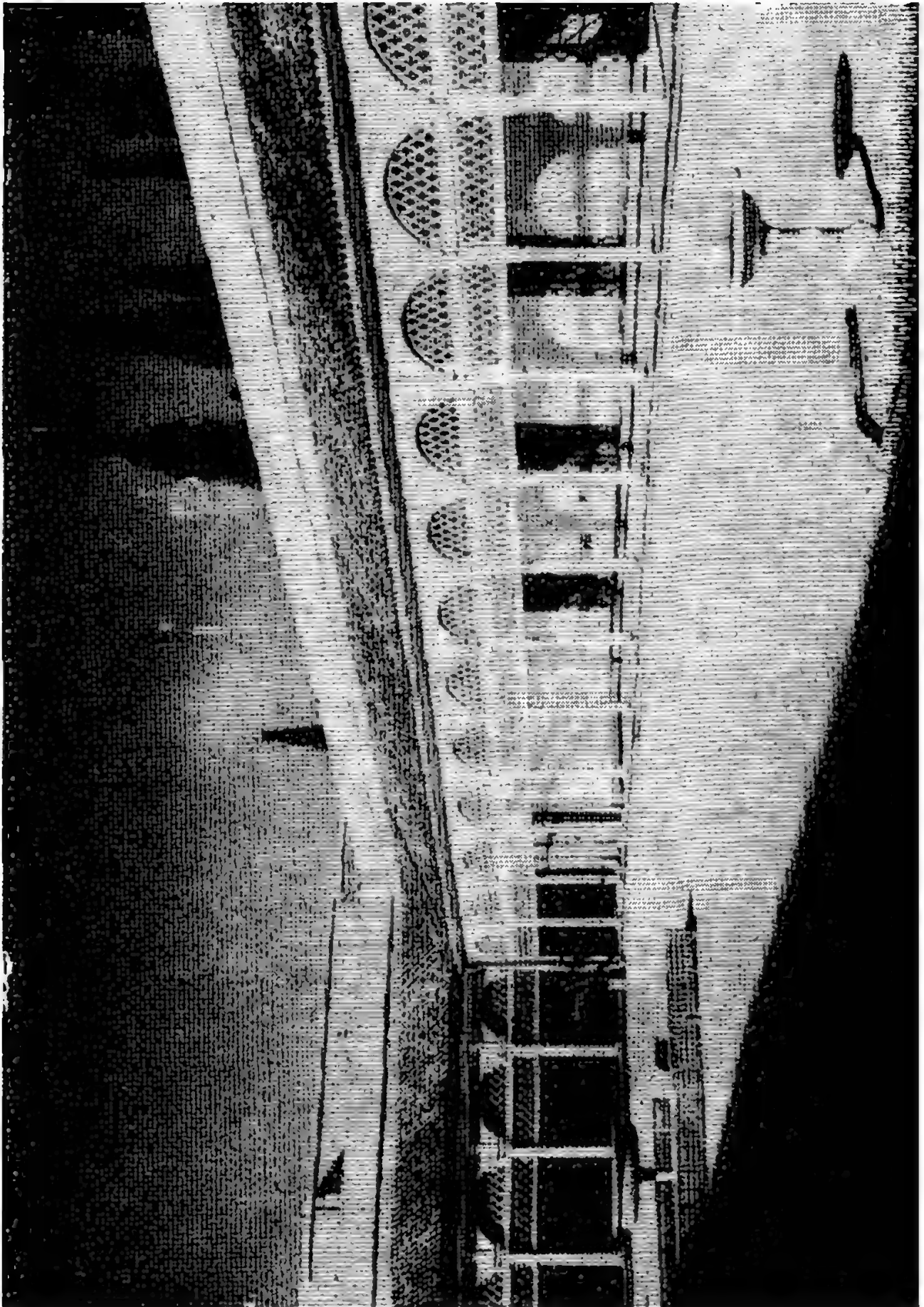
وقد ازدهرت حركة البناء والفن المعماري لاسيما في عهد المنصور حيث تم بناء  
الرباط ومنارات حسان والكتيبة واشبيلية وغيرها من الاعمال الكبرى وقد أشار صاحب  
المعجب الى ما امتاز به هذا العهد من كثرة خصب وانتشار أمن ودرور أرزاق واتساع  
معاش ولم ير أهل المغرب أياما قط مثلها واستمر هذا صدرا من أيام أبي يوسف «  
(ص 156) ولكن بعد المنصور توقفت الحركة الاقتصادية ومنها حركة البناء التي شلت  
نحو القرن لا سيما بعد وقعة العقاب التي انهزم فيها المغرب واندرحت جيوشه في  
الاندلس فكان ذلك نذير انهيار للدولة الموحدية وكان مما حدا المرينيين الى دخول المغرب  
ما أصابها بعد غزوة العقاب حيث « اقفر البلاد » التي ظلت مع ذلك جذابة « بخصبها  
ونقاء هوائها وسعة مسارحها ومراعيها وغذوبة مياهها وكثرة انهارها والتفاف أشجارها  
وبركات ثمارها » ( الذخيرة السنية ص 24 ) ولم تكن لتقضى عليها أزمة عابرة فقد

وجد المرينيون مغربا وفيرا السكان غنيا برجاله وموارده تذكىه حركة اقتصادية قوية وتطبعه حضارة يانعة بميسمها الرقيق ولعل من أبرز مظاهر الازدهار الاقتصادى قوة النقود الاقتنائية لان العملة هى معيار ثراء الدولة فقد لاحظ ابن بطوطة ان القوة الشرائية بالمغرب كانت تعدل ثلاثة أضعافها بمصر مثلا واتجهت حركة البناء فى المغرب اتجاهها اجتماعيا حيث تزايد عدد المدارس وازدهرت الاوقاف الوافرة لتجهيزها وتسييرها ولكن عصر أبى الحسن المرينى كان نهاية عهد الازدهار وقد كان ابو الحسن على حد تعبير اندرى جوليان - أقوى ملك فى القرن الرابع عشر الميلادى -

لقد اندحر أبو الحسن فى معركة طريف وبدأت الضربات تترى على المغرب من المسيحيين وتقلص المجهود الاقتصادى بسبب طغيان عوامل الفتنة ومقتضيات التسليح لمواجهة الخطر الدايم وقد عرف المغرب أيام أبى عنان المرينى أزمة اقتصادية كادت تؤدى بحياة الاسرة المالكة وتفاحش الغلاء بسبب تضاؤل مواد العيش حتى ارتفعت قيمة منزل للسكنى بفاس الى ألف دينار وهو مبلغ باهظ فى ذلك العصر ولكن السلطان قاوم الازمة واسعف الفلاحين الذين هم قوام الحياة الاقتصادية حيث وزع عليهم مجانا الاراضى الفلاحية وأزواج البقر لحرثها .

وفى الوقت الذى احتدم الصراع بين المرينيين والسعديين بدأ البرتغاليون ينزلون ضرباتهم بالسواحل المغربية فسيطروا على اكادير ومنها راقبوا مجموع الحركة التجارية فى الجنوب واحتلوا كلا من أنفا واصيلا حيث ابتزوا خزينة أموال الوطاسيين وشرع الاسبان فى نفس الوقت فى اعتداءاتهم على مليلية وحجرة بادس وعلى الشمال عموما فتقلص النشاط الاقتصادى على اثر اختلال الامن وانخراق طرق المواصلات وتوقف معظم المزارعين عن فلاح الاراضى بعد أن هبوا تلقائيا وبدون بطء - كما يقول طيراس - للصمود فى وجه التسرب الاجنبى وقد شوهت تحت أسوار سبتة مجاهدون تواردوا من أقصى الجنوب لنجدة الوطن المهدد .

وهكذا اضطر المغرب الى تحمل أعباء حرب دفاعية أثرت فى اقتصادياته التى لم تستعد ازدهارها نسبيا الا بعد أن استأصل السعديون موقتا الخطر البرتغالى الدايم فعندما اعتلى الشرفاء أريكة العرش وجدوا الاقتصاد المغربى مضعضعا بسبب الاحتلال والفوضى الناتجين عن تسرب البرتغال الى المراكز المهمة فبادروا بتحرير أكادير وأقروا عدالة اجتماعية نسبية بالرجوع الى المساواة والاعتدال فى الجبايات وعمد السلطان السعدى المتخفيف عن الشعب المغربى المرهق الى احتكار بعض المواد للدولة من أجل تسديد الخصاص الذى أسفرت عنه ضالة مداخل «الناثبة» لا سيما تعبئة جيش قوى استلزم من الدولة نفقات باهظة وحتى قبل هذا العصر ببضعة عقود لم يكن التوازن يتحقق بين مداخل الدولة ومصاريقها الا بشق النفس وذلك بالرغم عن موارد الدولة



التي بلغت في احدى السنوات 26 مليون فرنك (I) حسب قيمة الصرف في القرن الماضي ( انما اذا اعتبرنا الصرف قبل الحرب العالمية الاولى فيجب أن نضاعف المبلغ مائتي ضعف بحيث يصير مجموع الموارد 5,200 مليون فرنك )

ولكن انتصار المغرب في معركة وادي المخازن ازاح الخطر وأرجع للبلاد سمعتها في الخارج وجلب لصندوق الدولة من مبالغ الفداء مع ذهب السودان سيلا فياضا من الحيرات وأصبحت كثير من دول أوربا تخطب ود المغرب وترسل سفراءها لتنهضة المنصور السعدي وكان المغرب على وشك الاندراج في سلك الدول العظمى بأوربا لولا أن المنية أنشبت أظفارها يوم المعركة الكبرى في السلطان مولاي عبد المالك الذي كان يتكلم اللغة الاسبانية باناقة ويحرر بها بأسلوب صحيح ويحذق الإيطالية والتركية (حسما رواه دوشافروبيير في كتابه عن تاريخ المغرب ص 316 )

وأضافت الدولة الى هذه الثروة والى موارد المحكرات الصناعية مداخل مزارع قصب السكر التي اتسع نطاقها في الجنوب وأصبحت تنافس المزارع التي غرسها مهاجرون غرناطيون في ناحية فاس حيث تكثر أشجار التوت التي اعتنى هؤلاء الاندلسيون بها توفيراً للاوراق التي يتغذى منها دود القز .

وبالقضاء على النفوذ البرتغالي استرجع الجنوب ازدهاره الاقتصادي وثروته التجارية وقد حكى لنا الرحالة مارمول عن سوق جزولة السنوي الذي كان التجار موزعين فيه على أجنحة مختلفة تبعا لنوع البضاعة وحيث كانت تسود الحرية في المعاملات وحسن النظام بين نحو العشرة آلاف من التجار الواردين من السودان وغير السودان .

ومما زاد في ازدهار تجارة المغرب الخارجية ان العملة كانت - حسبما أكد ذلك الاستاذ طيراس - من نوع جيد قار و للدينار الذهبي المغربي نفاق لدى التجار الانجليز الذين اغتموا هزيمة البرتغاليين لبيع منسوجاتهم للمغرب بالذهب ومبادلتها كذلك بالسكر والجلود المدبوغة وملح البارود ومما يدل على ضخامة انتاج المغرب من السكر كون الانجليز انفسهم كانوا يستوردونه من المغرب وان المنصور الذهبي كان يستورد من ايطاليا كميات وفيرة من المرمر ويدفع في مقابلها السكر وزنا بوزن

غير أن تجارة المغرب الخارجية انتظمت بالاخص مع الاقاليم المتحدة ( وهي هولندا الحالية ) لا سيما بعد معاهدة 1610 ويقال بان المنصور اقترح على هولندا اذ ذاك منحها

---

(I) ذكر كودار في تاريخه ان موارد المغرب كانت تتراوح بين 15 و 25 مليون فرنك ( ص 162 )

نرضا قدره مليون ونصف دينار (I) ( أى نحو 18 مليون فرنك بصرف ذلك العصر 600 ، 3 مليون بصرف 1956 ) وهو مبلغ باهظ كنا نرتاب فى صحته لولا أن المنصور كان ينتهج هذه السياسة ازاء أوروبا حتى أنه منح الدون انطونيو الامير الطامع فى عرش البرتغال سلفا قدره 000 و 400 ليرة (2)

أما فرنسا فان مبادلاتها مع المغرب لم تنتظم الا بعد سنة 1577 ولكن ما لبثت العلاقات ان فترت بين البلدين عام 1616 على اثر اختلاس قنصل فرنسى لعدة ملايين من المجوهرات والكتب القيمة التى ائتمنها عنده المولى زيدان ( المؤرخ أندري جوليان ) وقد بعث المولى زيدان هذا - تقوية لمبادلات المغرب مع أوروبا - عملاء قاموا خلال الاقطار الاوربية بدعاية واسعة لمنتجات المغرب وسوائمه ومعادنه ( النحاس والرصاص والحديد والكبريت وغيرها ) ولكنه عمد فى نفس الوقت الى حماية الصناعة الاهلية من المزاحمة الاجنبية فحظر توريد بعض المنسوجات الانجليزية (3)

وكانت أهم المراسى اذ ذاك هى آسفى وآكادير وماسة أما ميناء سلا فانه لم يزدهر الا فيما بعد حيث بقى مدة من قرن أكثر مراكز المغرب نشاطا

وقد أمكن للمغرب ان يصدر الى انجلترا فى عهد محمد الشيخ الثانى نسيجا غليظا مصنوعا من الوبر وكذلك الذهب والزيت والسكر فى مقابل الحديد والرصاص والقصدير وكانت تبدو من انجلترا بوادى اطماع بالمغرب ومن جملة ما كانت ترنو الى استغلاله ملاحات الرباط وسلا التى كانوا يعتبرونها - كما أورد ذلك دو كاستر فى وثائقه - كافية لاستهلاك مجموع البلاد البريطانية وكانت الاطماع الانجليزية تثير اطماع دول أخرى ويتمنض التنافس بين الدول عن تشجيع بعض رؤوس الفتنة من المغاربة على اشاعة القلاقل والفوضى للاصطياد فى الماء العكر وكان من نتائج ذلك تقلص المبادلات الداخلية بين الشمال الذى كان ينتج المنسوجات والكتان والزيت والحزف ومواد الخياطة والجنوب الذى كان يبيع المواد الخام وقد شوهدت خلال عدة شهور قوافل من الجمال ( ما بين 1000 و 1500 جمل ) تعبر وادى ابى رقراق يوميا حاملة قموح الغرب

(I) - وثائق دو كاستر ج 1 ص 528

(2) ايد المنصور بايعاز من ملكة انجلترا - ترشيح انطونيو لعرش البرتغال واسلفه 400 000 جنيه ضمانتها استرهان الامير كريستوف نجل انطونيو فى القصر السعدى حيث مكث ثلاث سنين ناعم البال موفور الحال ثم رده فى الاخير لوالده بعد استشفاع اليزابيت دو كاستر ( ج 1 ص 3 )

(3) - فى عام 1617 اصدر مولاى زيدان الى هولندا ستة آلاف من الجلد البقرى وستة وثلاثين صندوقا من السكر ثلاثمائة قنطار من العود الذى يصبغ به وفى عام 1625 17 250 وطلا من النحاس

الى الجنوب ( كايي في تاريخ الرباط ص 54 )

غير ان العدوان الاجنبى على المغرب فى اواخر السعديين استفحل واقتطع الانجليز والاسبان والبرتغاليون لانفسهم من تراب المغرب مراكز زادت فى الاضطراب الداخلى والفتور الاقتصادى .

وكان اول عمل قام به مولاي رشيد ، هو القضاء على النفوذ الانجليزى فى الشمال باستئصال شافة الحضرة غيلان الذى كان صنيعة الانجليز ثم حرر المولى اسماعيل المراسى التى كان يحتلها العدو وسعى فى تحقيق الوحدة بين اجزاء البلاد وقيد أكد اندرى جوليان ان عناية المولى اسماعيل بتقوية نشاط المغرب الاقتصادى لم يكن اقل من اهتمامه بالنزب عن حوزة البلاد وقد قال قنصل فرنسى عنه بانه كان يسعى فى تقوية رعاياه وتنمية ثرواتهم عن طريق التجارة التى كان يفضلها على القرصنة

وما كادت تمر سنتان على تحرير اصيلا عام 1691 ( يقول روبر ريكار بأن اصيلا لم تقع فى قبضة أية دولة أجنبية منذ 1589 وهو خلاف المتعارف - انظر هسبريس ج 33 ص 201 ) حتى استأنف المغرب مبادلاته مع أوروبا حسب رواية «دوسان اولون» فاصبحت فاس مخزنا عاما لمجموع المغرب تمتد اصيلا من سلا وتطوان ويجلب المغرب مختلف البضائع من اسبانيا وانجلترا وهولندا وايطاليا ، وكانت الواجبات الجمركية المفروضة على الواردات والصادرات تبلغ احيانا 25 فى المائة ، وتلى مدينة فاس فى الاهمية مدن أربع، توزعت فيما بينها النشاط التجارى وهى مراكش وتارودانت وايلنج ومدينة مكناس التى كانت اول سوق للحبوب بالمغرب

وقد قضى سيدى محمد بن عبد الله على التهريب فى الجنوب بعد احتلال البريجة ( الجديدة ) وتأسيس الصويرة واضطر - ازاء دسائس بعض دول أوروبا اللاتينية - الى التعامل مع دول بروكستانية مثل انجلترا والسويد والدنمارك التى عقد معها معاهدات تجارة وصداقة كما عقد - قبل وفاته ببضع سنوات - معاهدة تجارة وملاحة لمدة خمسين سنة مع الولايات المتحدة وهذه المعاهدة المؤرخة بـ 16 يوليوز - 1786 قد جددت عام 1836

وقد عرف المغرب ايام سيدى محمد بن عبد الله عهد رفاهية وسلام وكان للدولة ثروة موفورة حيث بلغت موارد مكوس فاس سنويا 500 ألف مثقال أى 2.500.000 فرنك بصرف ذلك الوقت ( سوردون فى كتابه عن افريقيا الشمالية ص 241 ) وقد ذكر صاحب درة السلوك ان السلطان تصدق خلال أزمة الجفاف التى استمرت خمس سنوات بـ 500 مليون دينار وهو مبلغ باهظ نشك فى صحته وان كان هنالك ما يؤكد أن الدولة وزعت اذ ذاك على المدن والبوادي الاقوات ومختلف الاعانات المادية ، وقد عمد السلطان ضمانا لتموين البلاد بالمواد الحيوية - الى منح قروض لدور تجارية تكفلت بجلب تلك المواد من الخارج وبيعها بثمان بخس ، وقد ورد من جهة اخرى أن مولاي احمد الذهبى



وزع غداة اعتلائه اريكة العرش 200.000 دينار ذهبي اى نحو 260 مليون فرنك وقد وجد فى بيت المال ازيد من مائتى مليون .

وقد ظل المغرب غنيا مما حدا مولاي اسماعيل الى الغناء المكسوس والجبايات المفروضة على البضائع وكانت هذه تكفى وحدها لتسديد نفقات الدولة ، وقد عدل السلطان حتى عن احتكار التجارة الخارجية ولكنه أسس الديوانات فى المراسى المفتوحة وأقام عليها أمنا لمراقبة المداخل الجمركية وكان المغرب يصدر الى اوربا فائض منتوجاته ففى عام 1260 أصدر عن طريق الصويرة وحدها 75.000 طن من القمح والقطاني وقد قدر مبلغ رواج هذا الميناء الفتى عام 1267 هـ بستة ملايين فرنك واستمر نشاطه الى عام 1911 حيث زارته 462 باخرة واصدر المغرب عن طريقه 38000 طن من المنتوجات المغربية فى مقابل واردات لا تعدو حمولتها 12.000 طن اى أقل من ثلث الصادرات وفى سنة وفاة السلطان مولاي عبد الرحمن اى منذ قرن كان فى المغرب - حسبما ورد فى كتاب قضية المغرب لم . لامار تنيير الصادر فى نفس السنة أى عام 1859 ) 48 مليون رأس من الغنم و 6 ملايين من البقر . (I)

اما الصناعة ففى أواخر أيام السلطان مولاي عبد الرحمن كانت الرباط وسلا تحتلان الدرجة الثالثة فى ضخامة الانتاج بعد فاس ومراكش وقد انتجتا معا 840 زربية صدر ثلثها الى الخارج و 63.200 حايك و 460.800 سبينية ومات «الحرق» من المنسوجات وكانت المنتجات المغربية مشهورة فى أوربا بمتانتها وجمالها وكان بالمدينتين علاوة على ذلك 150 معملا « للبلغة » 40 دارا للصبغة و 10 دور للصبغة وثلاث دور لضرب السكة تقوم بتدوير تسعة قناطر من المواد الاولية كل يوم وكان نظام الحناطى يعمل فى اطار من الحرية الكاملة ولم يفسد - حسب اعتراف م باليس (2) الا بالاحتكاك مع نظريات اوربا وكان المخزن يحترم حرية التجارة وقد قام الاستاذ ماسينيون عام 1924 بتحقيق حول «الحناطى» فى فاس ومراكش والرباط وسلا ومكناس والدار البيضاء وتارودانت فتأكد لديه ان عدد رجال الحرب فى هذه المدن يعادل مبدئيا نصف عدد السكان فى نفس المدن والفتور الذى لحق الصناعة الاهلية هو من الاسباب التى تمنحست عنها البطالة بالاضافة الى هجرة البدويين الى الحواضر وتكاثر مدن القصدير الناتجين عن سياسة الافقار التى نهجتها الحماية فى البادية على الخصوص

اما الفلاحة فالظاهر انها كانت مزدهرة والشيء الذى يلاحظ بصورة عامة ان الثروة الفلاحية من محاصيل وغابات على الخصوص كانت فى مختلف العصور اوفر منها

---

(I) النشرة الاقتصادية والاجتماعية المغربية رقم 49 و 50 .

(2) كان المغرب يملك فى عهد مولاي عبد الرحمن 40 مليون رأس غنم وما بين 10 و 12 مليون معز و 5 الى 6 ملايين رأس بقر وخمسة ملايين من الجمال والافراس والحمير والبغال ( كودار ص 188 ) .

اليوم فقد وصف لنا مارمول غابات انمحي اثرها اليوم ووصف لنا الحسن ابن الوزان المعروف بليون الافريقي بحيرة الجبل الاخضر حيث كان هو نفسه يصطاد السمك وقد غاضت هذه البحيرة الآن .

وكانت حداثق اكدال بمراكش عبارة عن ضيع تجريبية حيث تغرس أنواع شتى من الازهار والرياحين المجلوبة من أوروبا .

وكان القطن يغرس في النواحي التي لاتعلو كثيرا عن سطح البحر وحول المدن الكبرى منذ اوائل العصور الوسطى بل وحتى قبل الفتح الاسلامي ولكن في عام 1866 كتب نائب القنصل الفرنسي بالدار البيضاء تيودور جيلبير تقريراً (I) ذكر فيه ان انجلترا شجعت في عام 1864 رعاياها القاطنين بالمغرب على زرع القطن في ناحية الجديدة فانتجت دكالة وحدها عام 1865 نحو 400 قنطار قيمتها 100.000 فرنك ذهبية اي ازيد من 20 مليون فرنك بالصرف الحالي وهو مبلغ لا بأس به اذا قورن بقيمة مجموع صادرات المغرب التي بلغت في نفس الوقت 22 مليون فرنك ذهبية اي 4.400 مليون بالصرف الحالي وكان في هذا القطن المغربي نوعان معروفان في أوروبا « سي - ايسلاند » لهما سدى حريري طويل من الطراز الامريكي الذي تقبل عليه أوروبا عظيم الاقبال وكذلك أورليان الجديدة وكانت المصانع المحلية هي التي تنقى القطن الخام من الحبوب بواسطة الآلات .

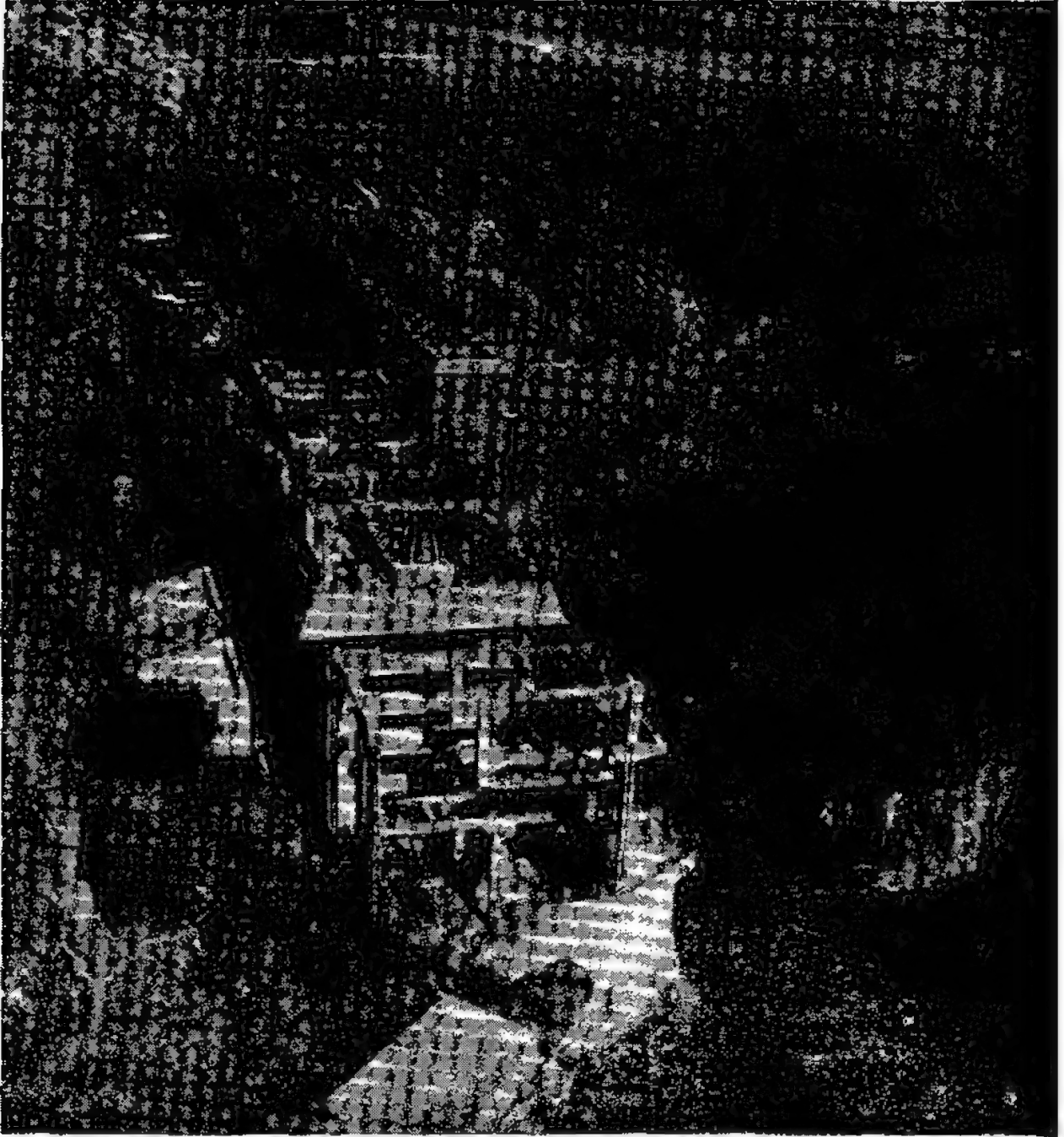
وكان الانتاج الفلاحي يقوى ويضعف تبعا للمؤثرات الجوية كما هو الحال اليوم ومن جملة النكبات التي كانت تتوالى على المغرب علاوة عن الجفاف غارات الجراد غير ان الحكومة المغربية كانت تقاومها بوسائلها البدائية فتدعو السكان الى جمع بيض الجراد وتشتريه منهم بثلاثة ريالات للقنطار ثم تقذف به في البحر على ان البدو كانوا يحفرون خنادق حول ضيعاتهم لصد هجوم الجنادب وكان آخرون يحيطون هذه الخنادق بصفائح من القصدير كحافز وقائي من هذا الهجوم

وقد اعتنى السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمن بزراعة قصب السكر وحاول استقدام فنيين اوربيين فابوا فجلب اختصاصيين مصريين لمباشرة تصفية السكر في مصنع اكدال بمراكش (الاتحافج 3 ص 556) ومعلوم ان سيدي محمد بن عبد الرحمن كان يهتم عند ما كان خليفة لوالده بمراكش بترقية أساليب الفلاحة على وجه العموم فجلب آلة لدرس الزرع ذات اربعة افراس وعدة آلات اخرى كما جدد حفر قنوات السقي وحاول حفر ابار على الطريقة العصرية وتأسست مصانع وطنية وبالاخص مصانع النسيج وقد احوال الامير بعض اراضي الرحمان الى جنان مزهرة

ولكن منذ احتلال فرنسا للجزائر بدأت النكبات تترى على المغرب الذي انهزم في معركة ايسلى ، ثم في حرب تطوان فاجبر على امضاء معاهدات لم تستفد منها سوى

---

(I) نفس المصدر رقم 51 .



السدود وتوليد الكهرباء

أوروبا وعلى اداء غرامات فادحة (نحو 120 مليون بـسيطة لاسبانيا و 50 ألف جنيه لانجلترا) وهذه الدبلوماسية المالية - كما يسميها اندري جوليان - هي التي حدثت بعض الدول التي كانت تعمل على التعجيل بانهيار المغرب الاقتصادي للسيطرة عليه سياسيا - الى الضغط عليه لمنحه قروضا متوالية (62 مليون ونصف مليون عام 1904 و 100 مليون عام 1907) وتسليمه كمصر مكتوف الايدي الى دول جشعة وكان المغرب يتوفر لحد الآن على «مالية وفيرة» و «حساب منتظم» كما يقول جوليان - فارتعن مستقبله وتوالت الدسائس والاتفاقات السرية التي تمخضت عن ازمة خطيرة ادت الى اجبار المغرب على قبول الحماية وسياسة التصنيع التي بدأ المغرب ينفجها الآن تبشر بالاضافة الى برنامج الانعاش الوطني بكل خير في هذا المرفق الحيوي من الاقتصاد المغربي .

فاستعمار المغرب الاقتصادي بدأ اذن قبل الاستعمار السياسي وقد استقل المغرب الآن ولكنه ما زال أم يتجرد من رواسب الاستعمار الاقتصادي فالواجب يقضى بمضاعفة الجهود من اجل ابراز ذاتيتنا الاقتصادية كنتيجة محتومة لاسترجاعنا للذاتية السياسية: ولكن ذلك لا يتم ولن يتم الا اذا نهجنا سياسة اكتفائية في الكماليات واشياء الكماليات كما وقع في بعض دول آسيا - ووسعنا نطاق التصنيع مع ترقية الاساليب في الحرف التي نتج عن انهيارها ظهور جيش من العاطلين الذين يتعين شغل القسط البدوي منهم في استغلال الاراضي الزراعية الصالحة فمقدرائنا موفورة وبلاد غنية كالمغرب من شأنها ان تصبح جنة وان يرتفع مستوى عيش مجموع سكانها اذا عرفت كيف تتكشف سنوات لتعيش في الرفاهية دهورا .



## الفصل السابع :

### الصناعة التقليدية

بلاد لنا - والمغرب الجديد ساع في تطوير الصناعة التقليدية وانعاشها - ان نعطي صورة عن ازدهار هذه الصناعة في مختلف العصور وعن مصادر اقتباسها ومدى تغلغلها في شتى الاوساط الاجتماعية التي كانت تجد فيها موردا خصباً للعيش (

ذكر الحسن بن محمد الوزان في وصف افريقيا الذي حله ماسينيون في كتابه « المغرب في السنوات الاولى للقرن السادس عشر الميلادي » المطبوع عام 1906 ) ان المغرب كان ينقسم في عصره من الوجهة الصناعية الى خمس نواح

I ناحية فاس التي تشمل حتى الريف وتوجد بهذه الناحية الانسجة الغليظة المصنوعة بالاختصاص في الجبال المجاورة في الهبط والريف وتمازة وثياب الصوف من زرهون وبني يازغة التي هي في مثل ليونة الحرير زد على ذلك الاسلحة والسكاكين والسيوف المصنوعة بمدينة فاس بالحديد المجلوب من مناجم بني سعيد المجاورة او الاعوان او الجنوب ) والفحم والمصنوعات الخشبية ( خشب الريف ) والخزف ( من مزدغة ) والصابون ( وهو من اختصاصات بني مراكلة ) ويزرع القنب والكتان في احواز فاس التي تصنع منه الجبال والمنسوجات فتوزعها على جميع أنحاء المغرب

ولكن مدينة فاس تجلب من النواحي النائية الجلود التي تصنع منها أجهزة الفرس والاحذية وانواع التجليد بعد الدباغة كما تجلب النحاس لصنع الاواني والتوابل التي تركزها من اجل اصدارها الى شمال البلاد ثم الحراير ( تربى دودة القز في احواز فاس ) والقطن لصنع القطنيات ( ص 96 )

2 ) ناحية الهبط الساحلية الى حاحة فقد دمرها الغزو البرتغالي فأفل نجمها كعامل صناعي مهم في القرن العاشر الهجري فقد كانت ناحية سبتة تصنع اواني النحاس المنحوتة والمرصعة - وتصدرها حتى الى البلاد الايطالية ولكن الحسن الوزان لم يشر الى غير القطنيات في العرائش والقصر الكبير وسلا حيث تتوافر دكاكين الافاوية وأدوات الحياطة التي تستعملها النساء وفي ناحية تامسنا حيث الاسكافيون والحدادون وصناع الجوارب والصابغون والخزافون وكانت هذه الناحية على وجه العموم

مركزا تجاريا للبرتغال الذين قضوا على مصانعها وصاروا يمدونها بالثياب القطنية والصوفية بعد أن كانت أصواف المدينة ( مدينة بوالاعوان ؟ ) مشهورة وقد ذكر الادريسي أن القطن موجود في تادلا وأشار الحسن الوزان الى وجوده في سلا والعرائش ( ماسينيون - ص 88 )

وقد زرع القطن بالمغرب في أرباض كبريات المدن منذ العصور الوسطى وقد شجعت انجلترا رعاياها عام 1864 ( لزراع القطن في ناحية الجديدة فبلغ منتوجه عام 1865 أربعمئة قنطار وتأسست في نفس المكان مصانع لمعالجة هذا القطن الحريري الشبيه بالقطن الامريكي ( النشرة الاقتصادية والاجتماعية بالمغرب رقم 51 )

3) ناحية هسكورة وتادلا حيث تركزت الصناعة الاهلية وراء شواحق الاطلس ففي هسكورة تكثر مناسج الصوف والسروج وفي تادلا البرانس السود (المراكشية) والطواكي ومع ازدهار الصناعة في هذه الناحية كانت تجلب من فاس المنسوجات وادوات الحياطة والسكاكين والجلود بل كانت تادلا تفضل سروج فاس على سروج هسكورة .



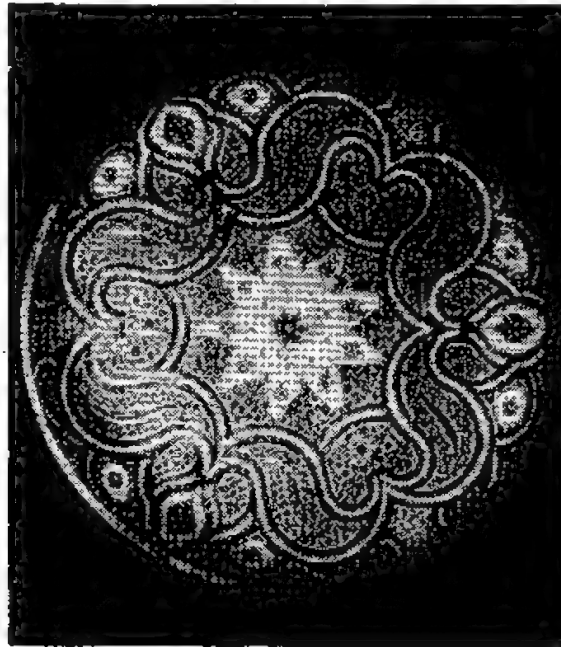
الفخار الفاسي برسومه الملونة الخلابه

4) صنع سوس حيث يصاغ الذهب والفضة وتصنع المواد الجلدية والثياب ولكن البرتغال صارت تنافس المصانع الوطنية بعد احتلال أكادير التي حررها السعديون في القرن العاشر .

5) الاودية العليا فى زيزوكير حيث يستورد السكان مصنوعات فاس اللهم  
الا ما كان من الحديد والانسجة الصوفية الجميلة التى تصنع فجيج خير أنواعها  
( نوع ميرينوس الحريرى ) والجلود المحضرة فى تدغة ويصدر السودانيون الى هذه  
الناحية القطنيات السوداء ( ص 96 الى 99 ) .

ويتبين من هذا العرض أن الصناعة كانت مزدهرة فى مختلف نواحي المغرب  
حتى القاصية منها والبدوية .

وكانت أوجه النشاط تختلف باختلاف الاستعدادات الطبيعية للناحية وتبعاً  
للمؤثرات الاقتصادية العامة التى تتطور أو تنقص مع العصور .



وعاء من الخزف الأزرق منقوش بفاس

ففى خصوص السكر مثلاً ذكر البكرى ( ص 161 ) ( القرن الخامس ) أن  
قصبه كان موجوداً فى إيكل قاعدة بلد السوس ومنها يحمل الى جميع أنحاء المغرب ويصنع  
منه الشيء الكثير حتى صار يباع القنطار منه بمئتاين (1)  
ويعالج فى نفس المدينة النحاس المسبوك .

---

(1) كانت مياه وادى سوس قديماً تجمع كلها لسقى مزارع قصب السكر فى سوس  
الذى كان هو السوق الأعظم لتجارة السكر فى باقى أنحاء المغرب وفى السودان  
(دوكامبوس ص 169)



على أن الروح الصناعية وكذلك التجارية كانت سارية في السوسيين وأهل الجنوب عموما منذ القديم فقد ذكر البكري أيضا ( ص 163 ) أن أهل السوس وأغمات أكثر الناس تكسبا وأطلبهم للرزق يكلفون نساءهم وصبيانهم التحرف والتكسب



غزالة من المعدن منقوشة بأسلاك فضية  
( صناعة مكناس )

وذكر صاحب المعجم أن مدينة أغمات يديع بها جلود تفوق جودة صنعها جلود الدنيا وذكر الادريسي (القرن السادس) ( وصف افريقيا ص 43 ) أن أهل أغمات ( أملياء تجار مياسير يدخلون الى بلد السودان بأعداد الجمال الحاملة لقناطير الاموال من النحاس الاحمر والملون والاكسية وثياب الصوف والعمائم والمآزر وصنوف النظم من الزجاج والاصداف والاحجار وضروب من الافاوية والعطر وآلات الحديد ) ( I )

( I ) لاحظ دوكامبو ( مملكة تنهار ص 123 ) ان المغرب كان يصدر الى السنغال الاحذية من نوع البلغة والى الجزائر زرابى الرباط والدار البيضاء وحيك وبلاغي فاس علاوة على البغال والافراس وزرابى الرباط مشهورة ، باستقرار الوانها ويصنع منها نحو أربعة آلاف فى السنة تصدر ثلاثة أرباعها الى أوربا وزرابى الدار البيضاء أقل قيمة منها من حيث اللون وذكر دوكامبو فى محل آخر ( ص 236 ) أن عدد مصانع الزرابى فى سلا والرباط خمسون ودور الدبغ 40 ودكاكين صنع البلغة 350 .

وذكر ياقوت في المعجم ( القرن السابع ) أن لنساء - سيجلماسة يد صناعة في غزل الصوف فهن يعملن منه كل حسن عجيب بديع من الازر تفوق الذي بمصر يبلغ ثمن الازار خمسة وثلاثين دينارا وأكثر ويعملن منه غفارات يبلغ ثمنها مثل ذلك ويصبغنها بأنواع الاصباغ ) ( ج 5 ص 41 )

وكانت الصنائع تؤدي القبالات ( أى الضرائب ) = قال الادريسي ( وصف افريقيا ص 45 ) = ( كانت أكثر الصنع بمراكش متقبلة عليها مال لازم مثل سوق الدخان ( السفنج ) والصابون والصفر والمغازل وكانت القبالة على كل شيء يباع فلما ولي المصادمة قطعوا القبالات )

وتعتبر مدينة فاس عاصمة الصناعة التقليدية منذ العصور الاولى وقد وصف الحسن الوزان في القرن العاشر مصانعها ( ماسينيون ص 228 ) فلاحظ أن بالصفة اليمنى لوادي فاس كانت تقوم مصانع التغذية باستثناء المجزرة ( واللباس والبناء بينما كانت صناعة الجلود والمعادن تعالج خارج عدوة الاندلس .

وتجلب للصفة اليسرى المواد المصنوعة بفاس أو خارج فاس في أهراء وتباع بالمزاد لتجار التفصيل .

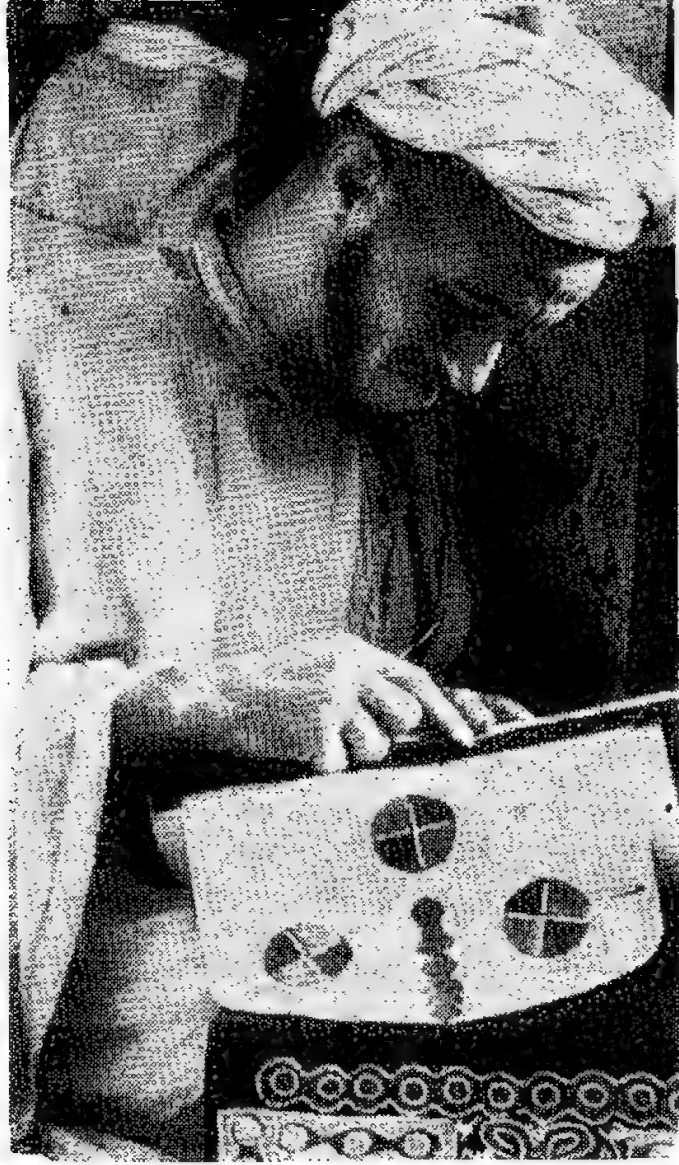
أما الحرف المتوافرة بفاس فقد أعطى مختلف الرحالين والمؤرخين وصفا شاملا عنها في شتى العصور وهي لا تكاد تقل عنها في أيام ازدهارها الى العهود الاخيرة من تاريخنا الحديث قبل مزاحمة الصناعة الحديثة لها ( راجع ماسينيون من ص 231 الى 234 )

وأما الصناعة الفاسية الكبرى فقد كانت متركزة حول قنوات ساقية مصمودة ووادي فاس غربي المدينة وجنوبي غربها وكان بها 520 معملا للنسيج ( الدرازة ) تستخدم 20.000 عامل و 360 طاحونة لم يبق منها عام 1904 سوى 160 يعمل فيها نفس العدد من العمال والحمالين و50 من دور التصبين ( القصارين ) زيادة على المائة الموجودة على الوادي قرب بوجلود .

وكان بجانب حارة الجذمي خارج المدينة ربض الكيفان حيث الصفايحية والنجارون والبنامون .

وذكر ياقوت ( المتوفى عام 626هـ ) في المعجم ( ج 6 ص 331 ) أن بفاس 600 رحي لا تبطل ليلا ولا نهارا وليس بالمغرب مدينة يتخللها الماء غيرها الا غرناطة )

وقد ذكر الجزنائي ( زهرة الآس ص 33 ) أن في زمن المنصور ومحمد الناصر الموحيين كان عدد الاطرزة بفاس 3094 ودور الصابون 47 ودور الدباغة 86 والصبغة 161 وتسكيك الحديد والنحاس 12 والزجاج 11 وكوش الجير 135 وأفران الخبز 1170 وأحجار عمل الكاغد 400 داخل المدينة ودور الفخارة 180 خارج المدينة )



صناعة الاخراج والقماطر الجلدية بالاطلس  
والريف عريقة فى القدم

وقال المراكشى فى المعجب ( القرن السابع )  
ما أظن فى الدنيا مدينة كمدينة فاس أكثر مرافق وأوسع معاش وأخصب  
جهات وذلك أنها مدينة يحفها الماء ( ص 221 )

ولعل ذلك راجع لكون فاس كانت مهدا لازدواج الحضارتين الاندلسية والمغربية فقد ذكر دوزي أن ثمانية آلاف عائلة قرطبية (I) هاجرت الى فاس حيث وجدت جالية قيروانية قد سبقتها الى المدينة ( ثلاثمائة عائلة ) وكان العرب عملة وتجارا بينما كان الاندلسيون يشتغلون بالاعمال الفلاحية ( تاريخ مسلمي اسبانيا ص 301 ) وفي نفس الوقت هاجر خمسة عشر ألف قرطبي الى الاسكندرية فاحتلوها ثم أخرجوا منها فاتجهوا الى جزيرة قريطش حيث أسس عمر البلوطي مملكة استمرت الى عام 961 ففتح اليونان الجزيرة ( ص 301 )

ونقل المقرئ عن ابن غالب ( النفح ج 2 ص 764 ) أن أهل الاندلس تفرقوا بعد الفتنة في المغرب الأقصى مع افريقية فمال أهل البادية الى ما اعتادوه فاستنبطوا المياه وغرسوا الاشجار وأحدثوا الارحي الطاحنة بالماء وعلموا أهل البادية أشياء لم يكونوا يعلمونها فكثرت مستغلاتهم وعمت الحيرات ومال أهل الحواضر الى المدن فاستوطنوها .

ففاق أهل الصنائع أهل البلاد وصيروهم اتباعا لهم ومتصرفين بين أيديهم ومتى دخلوا في شغل عملوه في أقرب مدة وأفرغوا فيه من أنواع الحذق والتجويد ( وفي عام 1019 خرجت الوف من أهل الاندلس بفاس وألوف بتلمسان وجمهورهم من تونس فتسلط عليهم الاعراب ونهبوا أموالهم وهذا في تلمسان وفاس والذين خرجوا بنواحي تونس سلم أكثرهم وكذلك بتطوان وسلا وفسحة الجزائر ووصل منهم جماعة الى قسطنطينية العظمى وإلى مصر والشام ، ( نشر المثاني عن النفح ص 101 ) وقد ظهر اثر ذلك حتى في تونس فان جانباً من الطبقة المتعدنة الغنية من الاندلس نزلت مدينة تونس واختلطت بأهلها وقلدهم الحفصيون ( حسن حسني عبد الوهاب في رسالة له بالفرنسية )

وقد ذكر المقرئ في النفح ( ج I ص 104 ) في حديثه عن الصناعة في الاندلس ان الجاهل الذي لم يوفقه الله للعلم يجهد أن يتميز بصناعة ويربأ بنفسه أن يرى فارغا عالة على الناس لأن هذا عندهم في نهاية القبح ،

وكان النظام الاقتصادي محكما نوعا ما في الاندلس من ذلك نظام التسعير ومراقبة الاثمان فهذا اللحم تكون عليه ورقة بسعره ولا يجسر الجزاران يبيع بأكثر أو دون ما حد له المحتسب في الورقة ( النفح ج I ص 203 )

ومعلوم ان المحتسب هو الذي كان يسير دوايب الحياة الاقتصادية في كل مدينة

(I) ذكر عبد الملك الوراق ان عدد العرب الوافدين من الاندلس الى عدوة الاندلس بفاس كان غفيرا ، يقال أربعة آلاف أهل بيت ( الاستقصا ج I ص 73 ) .

فهو الذى يشرف على الحناطى ويراقبها ويراقب الاسواق والمكايل والموازين وهو الحكم الذى يرجع اليه فصل الدعاوى بين التجار والصناع والمحترفين

وبالجملة فقد كانت له السلطة الكاملة فى ميدانى التجارة والاقتصاد

وقد تحدث م . باليز ( النشرة الاقتصادية والاجتماعية بالمغرب فى عدى 49 و 50 ) عن نظام الحناطى بالمغرب فلاحظ انه كان يتسم فى جميع العصور بطابع الحرية حيث أن المخزن كان يحترم مبدأ الحرية التجارية قبل صدور ظهير 1917 القاضى بتنظيم البلديات وفى فاس بالخصوص كان هذا النظام حرا جدا وانما فسد بالاختكاك بالمغرب



وعاء خزفى

وكثيرا ما كان ملوك المغرب يهتمون برجال الصناعة ويعملون على تنمية مواردهم وضمنان مصادر لمنتجاتهم فقد بعث مولاي زيدان عملاء الى أوروبا للدعاية للمنتجات المغربية وعمد فى نفس الوقت الى حماية الصناعة الاهلية من المزاحمة الاجنبية فحظر

## توريد بعض المنسوجات الانجليزية \*

وكان للانديلسيين أثر في تكييف الحياة الاقتصادية والاجتماعية بالمغرب لاسيما في المراكز التي استوطنوها حيث اختلف التأثير باختلاف هوية المهاجرين وطبيعة المهجر واغرب ما في الامر أن الاثر الفلاحى غلب مثلا في سلا بينما تأثرت الرباط بالطابع الارستقراطي والصناعى وكانت في الحقيقة ثلاث مدن : قصبة الاوداية والرباط وسلا وان كان بعض المستشرقين يطلقون سلا الحديثة على الرباط في حين سمي الادريسي سلا الحالية بسلا الحديثة ( وصف افريقيا ص 48 ) حيث أشار الى ما كان فيها قبل بناء الرباط من « أسواق نافقة وتجارات ودخل وخرج وتصرف لاهلها وسعة أموال ونمو أحوال والطعام بها كثير رخيص جدا وبها كروم وغللات وبساتين وحدائق ومزارع ومراكب أهل اشبيلية يقصدونها بالزيت الكثير وهو بضاعتهم » .

وقد ذكر كايي أن في عام 1636 استولى اندلسيو سلا الحديثة ( يقصد الرباط ) على القصبة وطردها أهلها الى سلا أو الجزائر وأصبح عبد الله بن علي القصرى الحاكم الوحيد فطمح الى حكم سلا فبنى قنطرة أمام حسان ( لعلها في مكان القنطرة القائمة الآن ) لنقل مدافعه وجنده فاستجند السلانيون بالعيشى فخلصهم وانجلترا هي التي هدمت هذه القنطرة في نفس الوقت على يد أميرها رنسيبورغ ولعل هذا التأثير المزدوج الذي تركه الانديلسيون في بلدين متجاورين من أغرب المظاهر التاريخية حيث تختلف الطبائع والاستعدادات بين المدينتين من النشاط الفياض والروح التجارية عند السلانيين الى ارستقراطية شبه جامدة في بعض العصور عند الرباطيين الذين اتسموا - خاصة في العقود الأخيرة بنوع من الركود الاقتصادي تمخص عنه أخلادهم الى اقتناء العقارات والتعيش من ريعها آفنين - بما طبع عليه الكثير منهم من كبرياء - من ممارسة أعمال التجارة والفلاحة هذا بينما كان بين اسرهم البورجوازية من تغرب وأسس المراكز التجارية في الشرق ودول أوروبا ونحن نرى هاتين الطبيعتين مزدوجتين في فاس وتطوان مثلا وهذا يفسر لنا - بعض الشيء - العوامل الحضارية والتاريخية التي جعلت من هذا المركز أو ذاك مركزا صناعيا أو فلاحيا أو هما معا .

وقد ذكر سرفانطيس مؤلف دون كيشوط في بعض رسائله أن الانديلسيين العرب كانوا يحتكرون حتى بعد سقوط الاندلس تجارة الاغذية ويضعون يدهم على المحاصيل عند نضجها ومنهم تجار البقالة والماشية والقصابون والحبازون وأصحاب الفنادق وهم لا يشترون العقارات احتفاظا بحرية استعمال أموالهم وكان ذلك من دواعي قوتهم وذكر الدكتور لى ( الموريسك ص 204 )

وذكر الدكتور لى ( الموريسك ص 7 ) أن العرب من أهم عوامل النشاط والرخاء في اسبانيا وأن براعتهم كانت قدوة في الزراعة والصناعة والعلوم والفنون وخلالهم

قدوة فى النشاط والمثابرة والزهد والعفة والرفق وكانوا على الجملة من أفضل العناصر التى يمكن أن تضمها دولة متمدنة )

وكان التسول معدوما . فى الاندلس وقليل جدا فى المغرب حيث لم يستفحل الا فى عهد الحماية من جراء سياسة نزع ملكية الاراضى الفلاحية التى جرفت بكثير من البدو الى أرباض الحواضر حيث سكنوا فى اخصاص موبوءة أو مدن القصدير وقد ذكر المقرئ فى النفح ( ج I ص 104 ) = ( وأما طريقة الفقراء على مذهب أهل الشرق فى الدول التى تكسل عن الكد وتخرج الوجوه للطلب فى الاسواق فمستقبحة عندهم الى النهاية وإذا رأوا شخصا صحيحا قادرا على الخدمة يطلب سبوه وأهانوه فضلا عن أن يتصدقوا عليه فلا تجد فى الاندلس سائلا الا أن يكون صاحب عذر ) وبخروج العرب من الاندلس اندرست فنون اشبيلية وطيطة والمرية وعفت صناعاتها ( لين بول - الموريسك فى اسبانيا )

وإذا راجعنا لوائح الصناعات التى كانت مزدهرة فى العدوتين نجدها متنوعة جدا فمن الانسجة المختلفة الى أنواع من الصناعات الجلدية والحشبية والمعدنية الى الحزف المرصع الى غير ذلك .

وقد أشار ابن مرزوق ( القرن الثامن ) الى بعض أنواع الصناعات المغربية المتصلة بالبناء وحده فذكر التجارين والجباسين والزليجيين والرخامين والقنويين والدهانين والحدادين - والصفارين ( المسند الصحيح ص 39 ) (I) والاثر الاندلسى ظاهر فى كل ذلك .

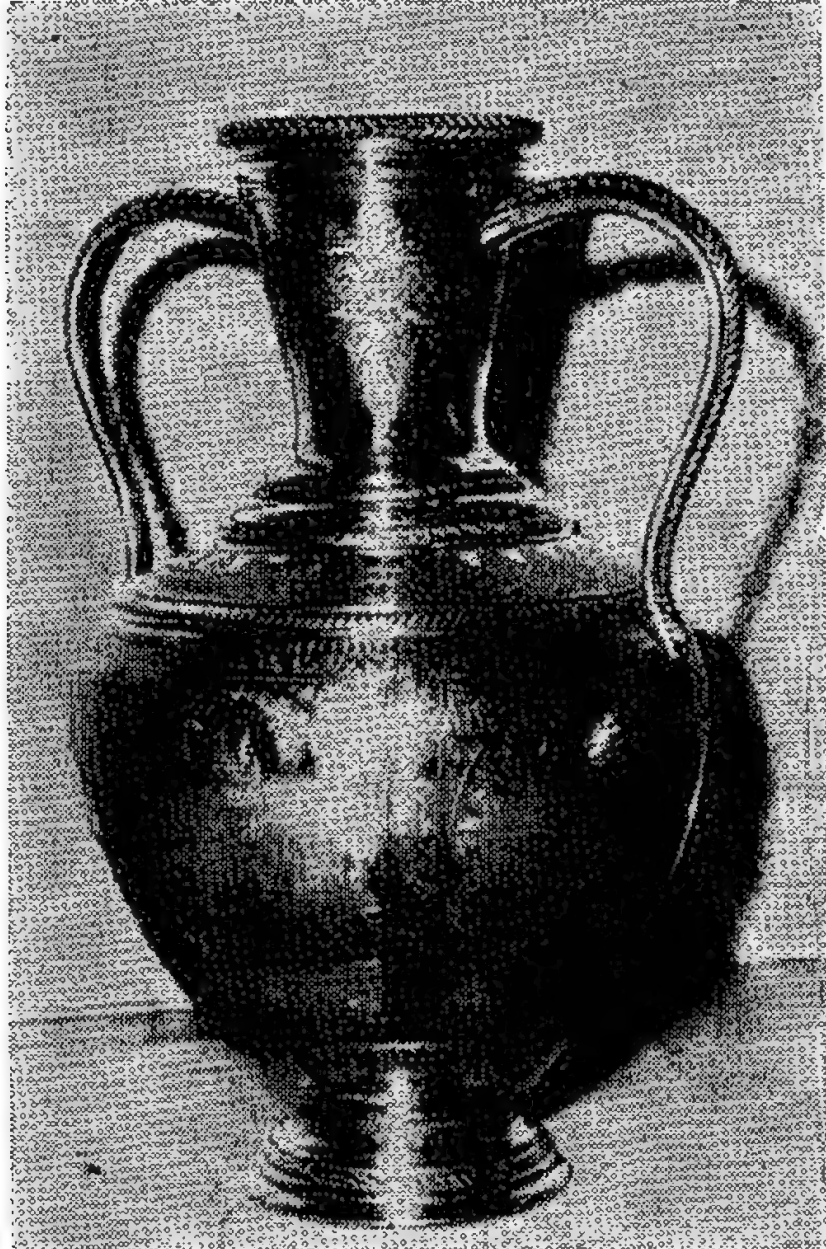
فهذا الزليجى الفاسى الذى هو نوع من الترصيع الحزفى أصله من الاندلس فقد كان يصنع بالاندلس نوع من المفضض ( المعروف فى المشرق بالفسيفساء ونوع يبسط به قاعات ديارهم يعرف بالزليجى يشبه المفضض ) المقرئ فى النفح نقلا عن ابن سعيد ج I ص 187 )

وقد جلب الحكم الاموى الفسيفساء عام 354 هـ من ملك الروم اقتداء بالوليد فى بناء مسجد دمشق فرجع وفد الحكم بالصانع ومعه من الفسيفساء 320 قنطارا

(I) لما أراد الموحدون اتخاذ أصونة للمصحف العثمانى « حشروا الصناع المتقنين ممن كان بحضرتهم العلية وسائر بلادهم القريبة والقصية فاجتمع لذلك حذاق كل صناعة ومهرة كل طائفة من المهندسين والصباغين والنظاميين والحلائين والنقاشين والمرصفين والتجارين والزواقين والرسامين والمجلدين وعرفاء البنائين . . فاشتغل أهل الحيل الهندسية بعمل أمثلة مخترعة وأشكال مبتدعة وضمنوها من غرائب الحركات وخفي امداد الاسباب للمسببات ( النفح ج I ص 291 ) .

هدية فرتب جملة من الممالك لتعلم الصناعة فأبدعوا وأربوا على الصانع الذي صدر  
راجعا عند الاستغناء عنه ( المغرب لابن عذاري ج 2 ص ( 354 ) .

والترصيع هو التكييف ( كلمة تركية ) وهناك مرادفات حسب البلاد والعصور  
منها التلبيس والترسيب والتنزيل وأصحها عند العرب في العهد العباسي التطبيق.  
وفن الترصيع ربما ادخل الى المغرب من سوريا مباشرة أو عن طريق الاندلس



وعاء من صنع مغربي ( يكون اما من النحاس واما من الخنزف )



رما زال الاوربيون يسمون هذا الفن الى الآن بالفن الدمشقي فى جميع أنواع الاواني والحلى وقولاذ دمشق مشهور فى أوربا حيث كان يستورد بكثرة ومن الشرق دخلت أساليب الصناعة العربية الى ايطاليا أول الامر وبعد الحروب الصليبية غزت المنسوجات العربية الاقطار الاوربية حتى اضطر أحد ملوك فرنسا الى اتخاذ قرار لتحديد ذلك السيل ( اعراف المسلمين وعاداتهم ص 247 )

وغالب فنون التطريز والترقيم المغربى من أصل أندلسى وبعضها من أصل أوربى أو شرقى . فقد نشرت هسبريس ( ج 21 عام 1935 ) بحثا حول التطريز المغربى فلاحظت أن النماذج التى اقتبس منها مختلف الفنانين بأزمور اسبانية ابطالية يرجع تاريخها للقرن السادس عشر والحواشى المطرزة فى أزمور هى انموذج للنهضة الاوربية بالمغرب .

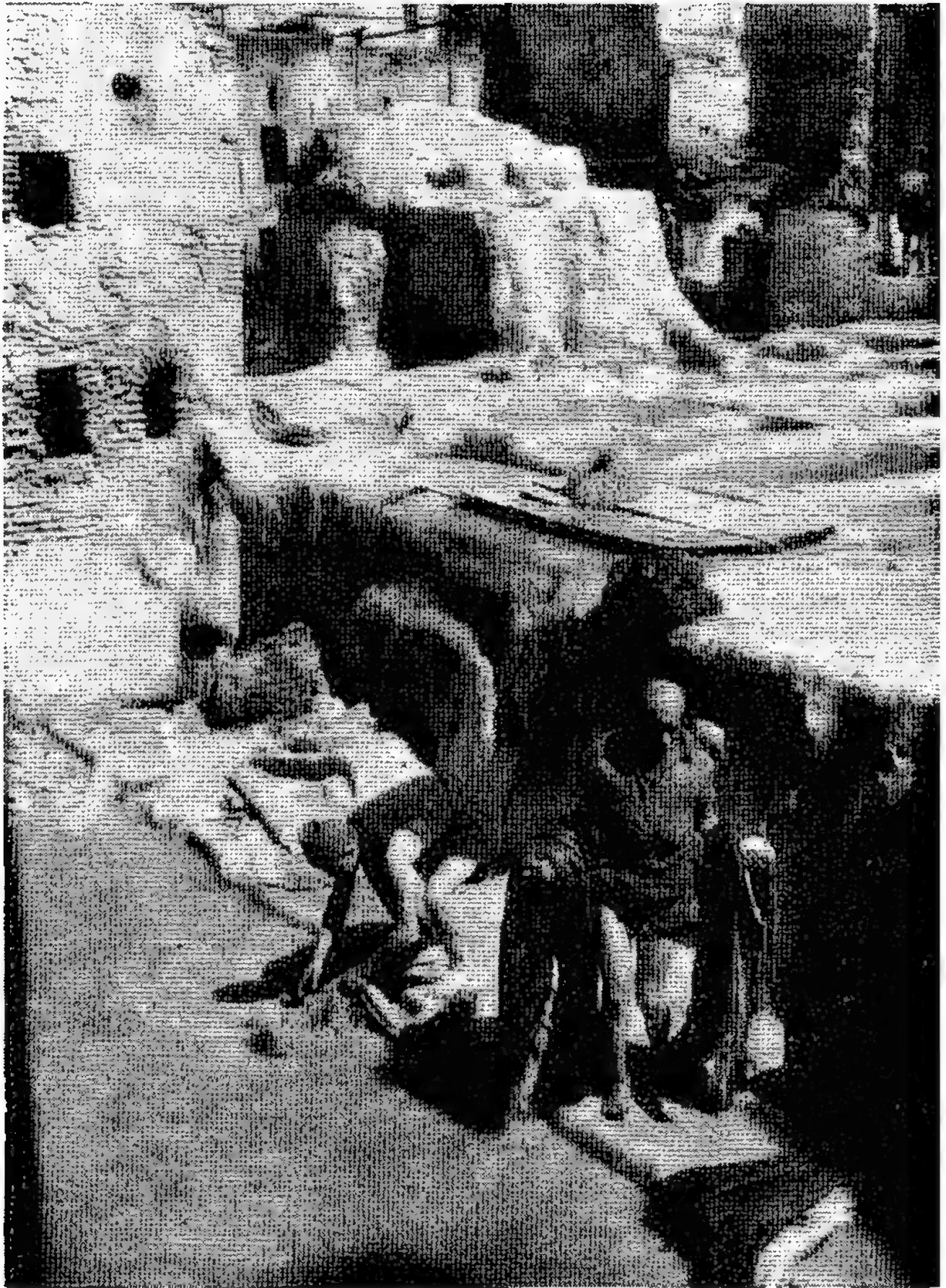
أما تطريز فاس فانه يستمد من الفن السورى واذا قارنا بين النماذج الاوربية والنماذج المغربية وجدنا أن الفرق غير محسوس اللهم الا فى تناسق الرسوم وهناك نماذج سلوية من أصل فارسى أو شامى وكلها معروفة فى أوربا وقد نقل الاندلسيون بعض الاساليب الاسبانية ويلاحظ فى تطريز الرباط تأثير الانسجة الاوربية .

وهناك تطريز بفاس علجى الاصل ادخلته الى المغرب النساء التركيات أو الجركسيات - اللواتى تسرى بهن أهل فاس وغيرهم ثم التطريز التطوانى الذى هو من أصل بلقانى . (I)

وفى القرن العاشر الهجرى حسب الحسن الوزان - كان عدد كبير من العملة يشتغلون فى دور السكة بفاس ومراكش ( الذهب والفضة ) وتيويت بسوس ( الحديد ) والمدينة بهسكورة ( الذهب ) وأزمور ( الذهب والفضة ) وسلا (الذهب والفضة ) ونول وسيتة وسجلماسة ( الذهب والفضة ) ولكن وجود العملة لم يمنع السكان من الاستمرار فى المبادلات الطبيعية بدون نقد لا سيما فى الجنوب ( هسكورة وتادلا والحوز ) حيث تستعمل الفضة فى حل النساء . ( ص 100 )

وتقوى أهمية المراكز الصناعية أو تضعف تبعاً لمواردها الاقتصادية ووفرة الصناع بها فقد قام الاستاذ ما سينيون فى سنتى 1923 و 1924 بتحقيق حول حناطى

(I) ولم تحل روح التقشف التى أظهرها بعض ملوك الموحدين دون ازدهار فن الزخرفة فقد أمر المنصور بقطع اللباس القالى من الحرير والاجتزاء بالرسم الرقيق الصغير ومنع النساء من الطرز الحفيل وأمر بالاكْتفاء منه بالساذج القليل وأمر بإخراج ما كان فى المخازن من ضروب ثياب الحرير والديباج المذهب فبيعت منه ذخائر لا تحصى بأثمان لم توف ولم تستقص ( البيان المغرب لابن عذارى ج 4 ص 81 )



الدبابة على الطراز القديم

المحترفين والتجار بالمغرب في فاس ومراكش والرباط وسلا ومكناس والدار البيضاء وتارودانت فتأكد لديه بعد التمهيد ان رجال الحرف في كل من هذه المدن يبلغ عددهم نصف مجموع سكان كل مدينة ( الحناطى الاسلامية - باريس عام 1925 ص 38 ) (I)

وقد ذكر كايي في تاريخ الرباط ( ص 193 الى 196 ) ان الرباط وسلا كان بهما اثنا عشر معملا لصنع الزرابى انتجت 840 زربية خلال سنة 1855 يوزع نصفها على مختلف انحاء المغرب ويصدر الثلث الى الخارج والباقي يستهلك في الرباط وسلا وكان بالمدينتين أيضا خمسة معامل لصنع العايك طول الواحد ستة أمتار في متر ونصف ويباع بستين فرنكا وأقلها ثمنا تباع بخمس فرنكات وقد صنع منها في المدينتين 63200 عام 1855 زد على ذلك 400 جلابة ( جلاباب ) من الصوف طواها خمسة أمتار وثمانها عشرة فرنكات للواحدة .

وصنع في نفس السنة 460800 سبئية من القطن المغزول المصنوع في جبل طارق قيمتها 345600 فرنك .

وكان بالمدينتين أربعون دارا للدباغة وعشر دور للصباغة تعالج كل سنة أزيد من 110.000 كيلو من الصوف و 1500 كيلو من الحرير و 150 معملا للبلغة و 30 من دور فخارة تصنع 600.000 آنية في العام قيمتها 180.000 فرنك

وكان بالمدينتين أيضا عام 1855 دور ثلاث لضرب سكة البليون تتوفر على اثنتى عشرة مصهرة ويعمل فيها 36 ما بين معلمين وعملة وكانت تذوب في كل يوم تسعة قناطير من المواد الأولية ( النحاس والرصاص والقصدير وكبريت النحاس) قيمتها نحو 1184 فرنكا .

وكانت منتجات مصانع الرباط وسلا تقدر بخمسة ملايين من الفرنكات مما يجعلهما المركز الصناعى الثالث في المغرب بعد فاس ومراكش .

وإذا اردت أن تأخذ صورة عن مختلف الحرف في أصغر مدينة بالمغرب فلتنظر الى أزموور مثلا حيث ورد في احصاءات يرجع عهدا الى حوالى 1930 (ناحية دكالة - من المغرب وقبائله ج II ص 40 ' أن الجبازة كان عددهم 83 ( 68 امرأة ) والفرارنية 60 ( 48 متعلما و 12 معلما ) والقهواجية 8 والاسكافين 45 والبقالة 180

(I) حكى دوكامبو الذى ألف كتابه « مملكة تنهار » عام 1886 أن عائلة متركبة من والدين وستة أطفال كانت تصرف - حسب تحقيق قام به فى الصويرة - تسعة عشر فرنكا فى الشهر طعاما ومشروبا وسكنى وملبوسا وأثاثا ونفقات غير اعتيادية وكان دخل هذه العائلة أربعة وعشرين فرنكا تقتصد كل شهر خمسة فرنكات (ص 86) .

وبائعوا الاحذية 20 والكفايتية 2 والبياضة أو الدجايجية 18 والجسارة 10 والبنائون  
الاخصائيون في الطابية ( المعروفة قبل سنة 1294 كما في البيان المغرب لابن عذارى ج  
1 ص 193 ) وكلهم من ناحية درعة واليزازة أو بائعوا الثياب 46 والبغازة أو بائعوا  
السماك بالجملة 52 والشراحة (مجففو السمك) 3 والعبارة 1 والنجارة 40 والبنائون 40 والحدادون  
32 والقزادرية وكلهم يهود 8 والمختصون في تبييض النحاس 4 والفخارون 19  
والدباغون 11 والنساجون 23 والحياطون المسلمون 25 والصاغة اليهود 21 والحجامون  
28 والطحانون 28 والسفاجون 4 والسقاة ( الكرابة ) 35 والصيادون 800  
والدلالون 11 والقنويون 2.

ومن جملة الصناعات المنتشرة بالمغرب النقايشية والمهارزية (تذويب النحاس)  
والجوالقية (صناع الفنارات ) والقزادرية (I) .

وقد أفردت الوثائق المغربية بحثا في هذا الموضوع ( سنة 1907 ) .

وكانت هنالك مراكز صناعية أخرى لعبت دورا مهما في تاريخ المغرب فهذه  
سببة مثلا أصبحت في عهد الموحدين في طليعة مراكز انتاج الورق الذي لم يكن  
يضاهيه جودة سوى ورق شاطبة وكان العرب يصنعون الكاغد من القطن فقد عثر  
كازيري في الاسكوريال على مخطوط عربي من ورق القطن يرجع تاريخه الى عام 1009  
وهو سابق للمخطوطات الموجودة في نفس مكاتب أوروبا وشاهد بأن العرب كانوا أول  
من استعاض عن الورق بالكاغد والعرب أول من صنع الكاغد من الخرق البالية  
( حضارة العرب ص 519 - 520 ) .

وذكر المسعودي في المروج أن جعفر البرمكي هو أول من اتخذ الكاغد أيام  
الرشيد فتداوله الناس من بعده .

ويقول كريم بأنه في عصر المعتصم العباسي أسس عمال مصريون في سامرا  
قرب بغداد مصنعا للورق ( أعراف المسلمين وعوائدهم بقلم كوتي ص 249 ) وذكر  
كوتي أن مصانع شاطبة كانت تمتد أوروبا الغربية بالورق بينما كانت أوروبا الشرقية  
تتزود من الشرق ومعلوم أن الطباعة - بالحروف المتحركة والتي هي من اختراع  
الصينيين قد دخلت بفضل المغول الى مصر ومنها الى أوروبا ( ص 275 ) وقد ألف

---

(I) ترويجا لمنتجات الصانع المغربي ودعاية لها شارك المغرب عام 1285هـ في المعرض  
الذي أقيم ببافيس في عهد نابليون الثالث ومثل المغرب ج محمد بن العربي القباج الفاسي  
المعروف بالفرنسوي لمعرفته اللغة الفرنسية وقد بعث معه السلطان نماذج من الانتاج  
المغربي مثل السروج المذهبة والمناطق المزخرفة والقطائف المنمقة والزليج الفاسي  
والمعلمين الذين يباشرون ترصيعه ( الاستقصا ج 4 ص 232 ) .

ابو بكر المقدسى كتابا فى الخواص وآلة الطبع غريب فى معناه مما يدل على أسبقية العرب . والعرب هم الذين نقلوا دودة القز الى أسبانيا ومنها الى المغرب ( أعراف المسلمين وعاداتهم ص 247 ) .

ووردت فى مخطوط عربى طريقة لصنع الثلج ولم تكتشف أوروبا ذلك الا فى النصف الاول للقرن السادس عشر ( كوتى أعراف ص 244 ) كما اخترع عباس بن فرناس الاندلسى صناعة الزجاج من الحجارة وهو الذى حاول الطيران وكتب فى الموسيقى ومثل فى بيته السماء بنجومها - وغيومها تمثيلا يقرب من الحقيقة .

وقد بلغت الصناعة الدقيقة والميكانيك ( علم الحيل ) عند العرب مبلغا كبيرا يتجلى فيما كتبه أبو العز بن اسماعيل ابن الرزاز الجزرى فى كتابه ( الحيل الجامع بين العلم والعمل ) حيث ذكر أنه صنع زورقا عليه صور بعض ندماء السلطان وصور جماعة من مطربات مجلسه واتخذ من خشب فيه دكة عليها صور الملك جالسا وعن يمينه حاجبه قائما وعن شماله حاملا السلاح وبين يديه غلام فى يده قدح كأنه يسقى ودون ذلك جماعة من الندماء جلوس عن اليمين وعن الشمال وبين أيديهم أوانى الشراب وقبالة الملك دكة عليها زامرة .. ووراء الدكة الجوارى الملاح وعلى حافة الزورق ملاحان بأيديهما محذقان فيوضع الزورق على سطح الماء فى بركة كبيرة فلا يكاد يسكن بل يتحرك وكلما تحرك فإن الملاحين يتحركون لانهم على محاور والمجاذيف تحركهم بحركتها فى الماء فاذا مضى نصف ساعة تزم الزامرة وتلعب الجوارى بالملاهى بأصوات يسمعونها من حضر ثم يسكتن ثم ( يعدن الزمر واللعب ) .

وفى كتاب الحيل هذا لابن الرزاز صور كثيرة للساعات المائية والدوايب والآلات المتنوعة وهو موجود بالحزاة النيمورية بمصر وكذلك كتاب ( علم الساعات والعمل بها ) لرضوان بن محمد الحراسانى به صور ساعات مائية وما يتخذ فيها من التماثيل والدمى .

وفى أخبار مصر لابن ميسر أن الافضل أمير الجيوش وزير الفاطميين كان له مجلس شراب فيه صور ثمانى جوار متقابلات عليهن أفخر الحلى فاذا دخل ووطئ العتبة نكسن رؤوسهن خدمة له فاذا جلس فى صدر المجلس استوين قائمات .

وجاء فى تاريخ سديو أن أبا الوفاء البوزجاني اخترع بندوق الساعة الدقاقة وقال سمى العالم الأمريكى أن كمال الدين بن يونس لا حظ قانون الرقاص وسبق غاليلى الى معرفة شيء منه

ووصف المقرئ فى النفخ ساعة كانت عند أبى حمو سلطان تلمسان ( لها أبواب مجوفة على عدد ساعات الليل الزمانة فمهما مضت ساعة وقع النقر بقدر حسابها وفتح عند ذلك باب من أبوابها وبرزت منه جارية وفى يدها رقعة مشتملة

على نظم فتضعها بين يدي السلطان ويسراها على فمها مؤدية بالمبايعة حق الخدمة )

وقد صنع أبو عنان المريني على يد موقته على التلمسانى عام 758 منجانة بطيسان وطسوس من نحاس مقابلة لباب مدرسته الجديدة بسوق القصر وجعل شعار كل ساعة أن تسقط صنجة في طاس وتفتح طاق ( زهرة الآس ص 40 )

وقضية مقصورة جامع مراكش المصنوعة أيام الموحدين معروفة وقد كانت تتحرك جدرانها ومنبرها بمجرد ما تمس رجل الخليفة الازرار الموضوعة في المدخل الخاص عند دخوله للمقصورة (I) على ان عظمة الابتكار الاسلامى فى الميدان الصناعى تتجلى - كما قال ماكس ما يرهوف - فى علم البصريات التى هى الآن أساس صناعة النظارات والمرايا فى العالم وقد جاء فى دائرة المعارف البريطانية أن ابن الهيثم أول مكتشف ظهر بعد بطليموس فى علم البصريات وجاء فى تراث الاسلام أن علم البصريات وصل الى أعلى درجة من التقدم بفضل ابن الهيثم واعترف العالم الفرنسى فياردو بأن كبلر أخذ معلوماته فى الضوء وانكساره فى الجو من كتب ابن الهيثم وقال سارطون أنه أعظم علماء الطبيعة فى القرون الوسطى ومن علماء البصريات القليلين والمشهورين فى العالم

ولم يكن العرب ينفون من الصناعة والتجارة .

فقد قال ابن القاسم ان مالكا كانت له أربعمائة دينار يتجر له بها فمناها كان قوام عيشه ومصلحته ( مدارك عياض - مخطوط )

وكان أبو حنيفة يتجر بالكوفة فى دار ما زالت موجودة وهى دار ابن حريث ( أبو حنيفة بطل الحرية والاسلام ) والامام الحفاف أحمد بن عمر بن مهير كان

(I) كانت هذه المقصورة مدارة بحيل هندسية بحيث تنصب اذا استقر المنصور ووزراؤه بمصلاه منها وتختفى اذا انفصلوا عنها وقد اتخذها المنصور بجامعة المتصل بقصره فى مراكش وفيها يقول أبو بكر ابن مجير شاعر المغرب فى وقته ( له ديوان يشتمل على أكثر من 9400 بيت ) .

فكانها سور من الاسوار	طورا تكون بمن حوته محيطه
فكانها سر من الاسرار	وتكون حينما عنهم مخبوة
فتصرفت لهم على مقدار	وكانها علمت مقادير السورى
فى قومه قامت الى الزوار	فاذا احست بالامام يزورها
تكون الهالات للاقمار	يبلى فتبلى ثم تغفى بعد

وذكر المقرئ فى النفح أنه زار مراكش عام 1010 فلاحظ أن حركات هذه المقصورة بطلت وبقيت آثارها ( النفح ج 2 ص 704 )

يؤلف للمهتدى بالله كتاب الخراج ويصنف كتبه القيمة في الفقه في حين يعيش من خصف النعال .

والجصاص شيخ زمانه ينتسب الى العمل في الجص ( نفس المصدر ) والشيخ ابراهيم المتبولي كان يبيع الحمص المسلوق بالقاهرة ( طبقات الشعرائي ج 2 ص 67 )  
ومحمد بن أحمد بن طاهر الانصاري الاشبيلي النحوي المعروف بالحديب كان بفاس . ينتحل صناعة الخياطة وقد رأس أهل عصره وأخذ عنه أبوذر الحثمى وابن خروف النحويان ( جذوة الاقتباس ص 168 )

وأبو تمام كان سقاء في جامع عمرو بن العاص ( ابن خلكان ج 1 ص 172 )  
وكان الجاحظ يبيع الحبز والسكك ( معجم أدباء ج ص 369 )

وكان أبو العتاهية يبيع الجرار والفخار ويتوافد على حانوته المتأدبون فيأخذ هؤلاء ما يكسر من الخزف ويكتبون ما ينشدهم أبو العتاهية من أشعار ( الاغانى ج 3 ص 129 ) . وكان أبو بكر الصبغى المتوفى عام 344 هـ يعمل الصبغ بنفسه ويبيعه في حانوته وكان من أعيان فقهاء - الشافعية وكان حانوته مجمع الحفاظ والمحدثين وكان عبد الله بن يعقوب يجلس على باب هذا الحانوت يقرأ للناس (طبقات الشافعية ج 2 ص 128)

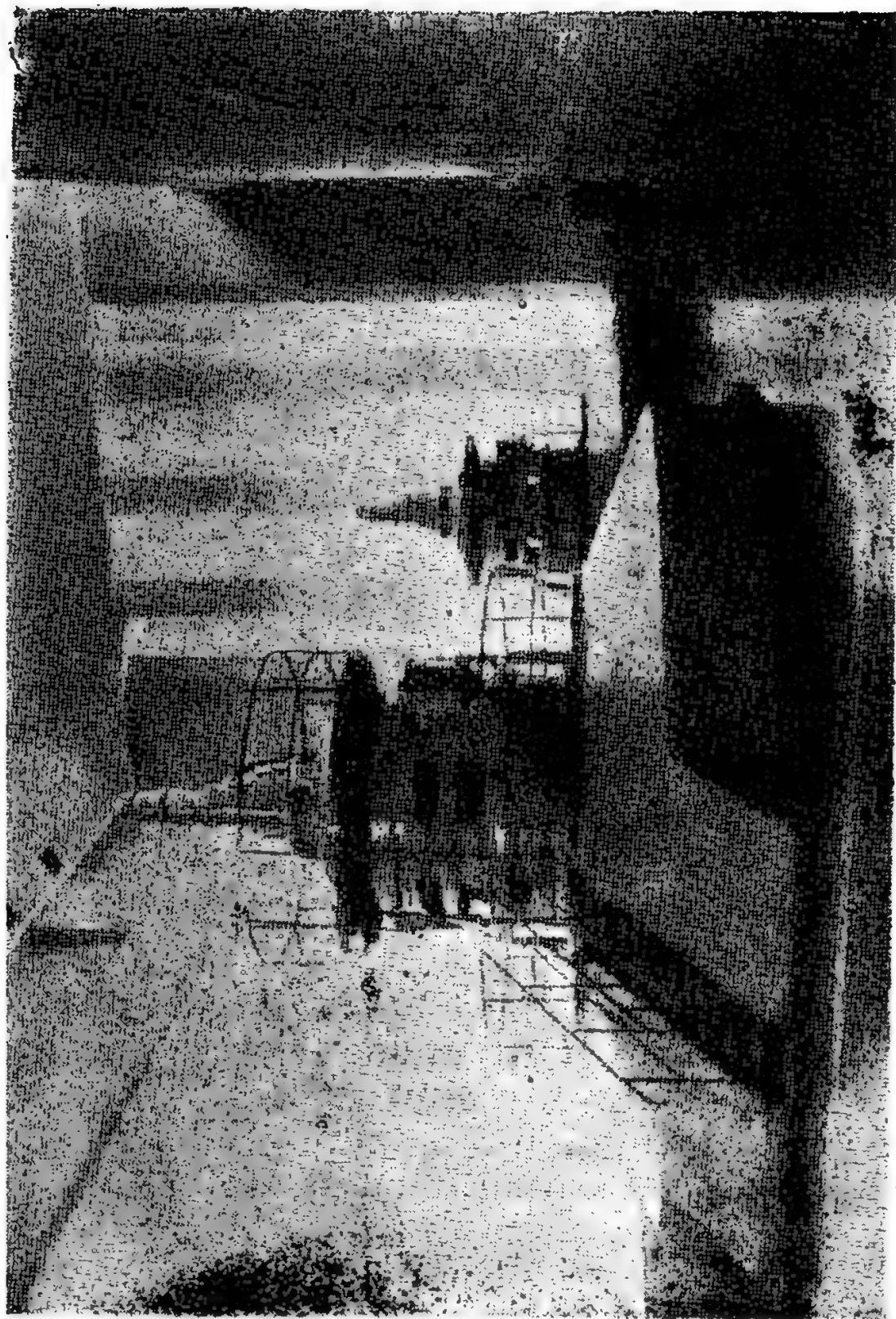
ومحمد الغساني التلمساني كان تاجرا في قيسارية أسفى يدير حانوته بعد الفراغ من مجلس تدريس الموطا والسير والنحو والآداب واللغة توفي عام 663هـ ( الذيل والتكملة )

ويذكرون أن العلامة الكبير الشيخ محمد بن عبد الله معن كان ( يتمشش بعمل دود القر ) بفاس ( نشر المثاني ج 1 ص 197 )

ومن هذه الفذلكة يتجلى لنا الدور الخطير الذي لعبته الصناعة التقليدية بالمغرب والمركز الاجتماعى المهم الذى شغلته فى مختلف العصور طبقة التجار والمحترفين الذين ترجع كثير من عوامل الازمة الاقتصادية الضاربة أطنابها الآن الى تضعفهم من جراء غزو الصناعة الحديثة بدوايلها وآلاتها العصرية لميدان العمل المغربى ولا شك أن من الادوية الناجمة فى انعاش هذه الطبقة هى تطور اساليبها وحصولها على الوسائل المادية الكفيلة بذلك .

ولا ريب ان مشاريع وزارة الاقتصاد ومنها احداث لجنة عليا للتنسيق وبنك للقرص ستكون عاملا قويا فى هذا الانعاش .





تاریخ و جغرافیا



## الفصل الثامن :

### العملة المغربية

علم النميات هو علم تعرف به أنواع النقود التي ضربت في أزمنة مختلفة وبلاد شتى وفي أيام ملوك وقيصرة متنوعين والناميات جمع نمي وهي كما في القاموس صنجة الميزان أو الفلوس والدراهم التي فيها رصاص أو نحاس والواحدة بهاء والجمع نمامي وهذه الكلمة متقاربة مع لفظة لها نفس المدلول في اللغتين اليونانية واللاتينية ومنهما أخذ الفرنسيون كلمة :

ولم يكتب في هذا الموضوع من علماء الاسلام ومؤرخيه الا أفراد قلائل منهم البلاذري في آخر مصنفه ( فتوح البلدان ) والمقرئ في صاحب الخطط في ( رسالة في النقود الاسلامية ) عنى بنشرها الشدياق ثم أعيد نشرها عام 1933 ( وهي تتم ما كتبه البلاذري ) وهناك كتاب ثالث هو الجزء العشرون من ( وهي الخطط التوفيقية الجديدة ) لعلي باشا مبارك أفرد للنقود العربية فتم بذلك موضوع تلك النقود من صدر الاسلام الى عام 1282 ( الموافق عام 1865 ) والكتاب الرابع موسوم ( بتحرير الدرهم والمثقال والرطل والمكيال ) تأليف مصطفى الذهبي الشافعي وهناك أيضا أقوال متفرقة في كتب مؤرخين آخرين كابن خلدون والقلقشندي .

أما في اللغات الاجنبية فاهم ما كتب في هذا الباب رسالة النقود لم . دوساسي وقبل ان نرسم لوحة عن تاريخ النقود المغربية نرى من الواجب التمهيد لها بلمحة في تاريخ النقود العربية وكذلك الاجنبية فنقول :

كان الناس يتعاملون أول الامر بالمقايضة قبل ان يعرفوا النقود ويقال بأن أول أمة تعاملت بالنقود هي اللوذية في متم القرن السابع قبل الميلاد وقد ذكر انستاس الكرملي في كتابه النقود العربية أن بلاد فارس تعلمت ضرب النقود من لوذية على اثر تغلبها عليها عام 546 قبل الميلاد وكانت النقود في أول أمرها تضرب مربعة ثم جعلوها مستديرة وقد علم اللوذيون العالم النقود المقطوعة بحجم معين ووزن معين وطبعها بطابع الملك كغالة لقيمتها وهكذا شاع استعمال النقود المطبوعة في جزر المتوسط واليونان وأوربا وعند ما نمت ثروة أئنة واتسع اطار تجارتها كانت نقودها تحتل مركزا مهما في الاسواق لا سيما في حوض المتوسط ولم يستعمل الرومان

النقود الا حوالى عام 350 قبل الميلاد حيث ضربوا نقودا فضية على غرار الدراخمة أى الدرهم اليونانى وصغروها الى سدس حجمها الاصلى بعد استيلائهم على جنوب اليونان عام 268 قبل الميلاد على أن القرطاجنيين وهم من الجنس العربى لرجوع عنصرهم الى الكنعانيين سكان فينيقيا ( أى ساحل لبنان ) هم أسبق الامم الى استنباط النقود الجلدية التى كانوا يستعملونها استعمالنا اليوم للاوراق المالية على أن أول أمة استعملت الاوراق البنكية فى شبه شكلها الحالى هى أمة الصين كما أورد ذلك ابن بطوطة فى رحلته حيث أشار الى وجود ( أوراق ) بقدر الكف مطبوعة بطابع السلطان واذا تمزقت حملها الى دار السكة ليأخذ عوضها ) .

وكان الانباط فى جنوب شرقى الاردن قد اقتبسوا من اليونان ضرب النقود وأول من فعل ذلك منهم الحارث الثالث وكانت للدولة التدمرية نقود فى أحد وجهيها صورة وفى الوجه الآخر أحرف أما العرب قبل الاسلام فانهم كانوا يتعاملون بنقود كسرى أى الدراهم والدنانير وكان الدرهم فضيا والدينار ذهبيا على الاغلب ووزنه مثقال وكان الى جانب هذين النقيدين نقود نحاسية وروى عن الزمخشري أن الدينار قطعة من فضة وهو خلاف المشهور كما يدل على ذلك قول الشاعر الذى شبه الدينار بالشمس والدرهم بالقمر :

ويظلم وجه الارض فى أعين الورى      بلا شمس دينار ولا بدر درهم

ويرى المقرئ أن النقود النحاسية لم تكن معروفة فى القديم وهو خطأ لوجودها عند الرومان واليونان .

وكانت قيمة الدينار تختلف من 10 دراهم الى 13 أو 15 درهما حسب خلوصها أو زيفها ويقدر الدينار اليوم بنصف ليرة فرنسية ذهباً أو نحو العشرة فرنكات ذهبية وجاء فى الخطط التوفيقية أعلى مبارك باشا ( ج 4 ص 46 ) أن قيمة الدينار هى خمسة عشر فرنكا ذهبيا .

وكانت الدراهم الفارسية ثلاثة أنواع منها البغلية أما الدنانير فقد عرف العرب منها صنفين الهرقلى أو الرومى والكسروى أى الفارسى وقد ظل العرب بعد الاسلام يتعاملون بالنقود الرومية والفارسية فلما ضربوا نقودهم أبقوها على شكلها الرومى والفارسى بكتابتها ونقوشها حتى أن سيدنا خالد ابن الوليد يوم ضرب باسمه نقودا فى طبرستان عام 15 أو 16 هـ جعلها على رسم الدنانير الرومية ويقول المؤرخ الالماني ميلر بأن خالدا أبقى على أحد وجهي هذه الدنانير صورة الصليب والتاج والصولجان ونقش على الوجه الآخر اسمه اليونانى وقد لاحظ الاستاذ أنستاس الكرملى أن هذا يتناقض ما قاله المقرئ من أن سيدنا عمر بن الخطاب هو أول من ضرب النقود فى الاسلام ويريد الاستاذ الكرملى أن يستنتج من رواية ملر أن ضرب

النقود باسمه كان من أهم الأسباب التي دعت عمر بن الخطاب الى تنحيه عن قيادة الجيش وأن عزله كان بعد فتح الشام والقدس لا في واقعة اليرموك والذي حصل الاستاذ على هذا الاستنتاج كون خالد لم يكتثر للعزل بل ظل على ولائه لمرو حارب في جملة الجند وهذا استصغار لايمان خالد الذي كان يرى أن طاعة الخليفة ولو مخطئا هي طاعة للرسول .

أما عبد الله بن الزبير فهو أول من ضرب النقود مستديرة في مكة وضرب الامراء والولاة في عهد الخلفاء نقودا في طبرستان عام 28 هـ ولكن أول من ضرب النقود الرسمية عربية مستقلة في الاسلام وأوجب التعامل بها كما يقول الاستاذ الكرملی وأبطال استعمال النقود الرومانية والفارسية هو عبد الملك بن مروان خامس أمراء بني أمية بإشارة سيدي محمد الباقر بن علي بن الحسين ولكن ابن الاثير ينسب فضل هذا الرأي لخالد بن يزيد بن معاوية وقد عرفت دنانير عبد الملك بالدنانير الدمشقية وأمر عامه على العراق الحجاج بن يوسف الثقفي بضرب الدراهم ثم صار أمراء العراق يضربون النقود لبنى أمية وفي معلة الاسلام أن الحجاج اتخذ دارا للضرب وجمع فيها الطباعين فكان يضرب المال ... ثم أذن للتجار وغيرهم أن تضرب لهم الاوراق واستغلها من فضول ما كان يوخذ من فضول الاجرة للصناع والطباعين .

وحينما غلب هارون الرشيد نفقور ملك الروم البيزنطيين فرض عليه غرامة مالية ينقش على أحد وجهي نقودها ( هارون الرشيد ) وعلى الآخر ( الامين والمأمون ) وقد استعمل العباسيون الحجارة الكريمة كما تستعمل الحوالات المالية اليوم .

وكان الدرهم البغلي يساوي ثمانية دوانق والمغربى ثلاثة فامر سيدنا عمر بن الخطاب بالنظر الى الاغلب في التعامل فحددت قيمة وسطى وهي ستة دوانق .

والبغلية نسبة الى بغل وهو اسم يهودى ضرب تلك الدراهم كما أورد ذلك صاحب البرهان القاطع وصاحب مجمع البحرين .

والدرهم في اليونانية دراخمي كما أن الدينار كلمة رومية هي :

والقيراط معرب كذلك عن اليونانية وكان وزنه يختلف بحسب البلاد فبمكة ربع سدس دينار ( أى 24 / 1 ) وبالعراق نصف عشرة ( أى 20 / 1 ) كما في القاموس ومن أغرب ما ورد في مجلة هسبريس ( ج 23 سنة 1936 ) أن صلاح الدين الايوبي ضرب عددا من النقود الذهبية والفضية ليسحب من الرواج العملة الزجاجية التي كان الخلفاء القاطميون قد اضطروا الى استعمالها .

ويجد الباحث نتفا مبشرة من تاريخ النقود المغربية في جملة المصنفات التاريخية

والرحلات والتراجم إلا أن هنالك كتباً أفاضت في هذا الباب كرحلة الحسن بن محمد الوزان المعروف بليون الأفريقي وإذا أضفنا إلى ذلك ما أورده ابن بطوطة في رحلته ( ج 4 ص 336 ) والمقریزی وابن فضل الله والزياني ثم ما جاء في مصادر أخرى ككتاب النميات والنقود الإسلامية للاستاذ سوفير Souvire ( 87 - 1882 ) والعملية الإسلامية لم . ساسي ( 1797 ) وشينبي وبو نفيل في دائرة المعارف النقدية ( ص 175 ) وكذلك النماذج المحفوظة في المتاحف ودور الآثار يمكننا أن نرسم صورة عن النقود المغربية وتطورها وشكليتها وقيمتها خلال العصور وقد ذكر الاستاذ ماسينيون في التعليق الذي حرره حول رحلة ليون الأفريقي بعنوان ( المغرب في السنوات الأولى للقرن السادس عشر ) ( ص 100 ) لائحة لدور السكة في المغرب أيام الحسن الوزان أي أواخر القرن العاشر مشيراً إلى وجودها بفاس ( لسك الذهب والنضة ) ومراكش ( كذلك ) وتزيت ( الفضة ) وتبوت بسوس ( الحديد وهسكورة ) ( الذهب ) وأزمور ( الذهب ) والفضة وسلا ( الذهب والفضة كذلك ) ونون وسبتة ( ما بين القرنين الحادي عشر والخامس عشر الميلاديين ) وسجلماسة ( الذهب والنضة ما بين القرنين الحادي عشر والخامس عشر الميلاديين ) .

غير أن العملة لم تكن إذ ذك منتشرة في كل مكان لأن المقايضة كان لا يزال العمل جارياً بها وقد ذكر الحسن بن محمد الوزان أن النضة لم تكن تستعمل في عصره بسوس ومصودة وهسكورة وتادلا والحوز إلا حايا النساء لا للتعامل .

وكان هنالك نوعان من النقود نقود حقيقية مسكوكة كالدينار الذهبي والدرهم الفضي والفلس المصنوع من معدن البليون ونقود معظمها غير موجود وإنما تتخذ أساساً ومقياساً لغيرها من النقود الموجودة مثال ذلك المثقال العربي الذي كان يساوي في القرن الثاني ما بين 10 و 15 أوقية وما بين 40 و 60 موزونة ورغم أزمة الوفرة أو القلة انتهى طرأت على التتابع بخصوص الذهب والفضة بعد القرون الوسطى فن قيمة النضة الشرعية ضلت على ما كانت عليه في الصدر الأول أي سبع قيمة الذهب في حين أن المعدنين كادت قيمتها تتعادل بل تجاوزت قيمة الفضة قيمة الذهب على أثر اكتشاف مادن الإبريز ونضوب معين معادن الفضة القديمة وقد ضرب المغرب في المدة المتراوحة بين القرن الخامس والقرن العاشر الهجري قطعاً من الدينار وأخرى تساوي نصف دينار وسدسه وربعه وثلثه ونصف سدسه كما سك قطعاً من الدراهم ثم قطعاً أخرى تعادل قيمتها نصف درهم وثلثه وربعه وسدسه ونصف .

وكان البليون يساوي 6 فلوس والأوقية ريالاً إسبانياً - ولنستعرض الآن أوزان الدنانير والدراهم والفلوس من صدر الإسلام إلى أيام السلطان مولاى الحسن : فقد عثر في قصر فرعون ( مدينة ويلي ) على نقود ضربت أيام الإدارة وقبلهم وهي :

دراهم سكت في واسط ( مقر الحجاج بين البصرة والكوفة ) عام 95 هجرية  
ودراهم ضربت في مدينة السلام عام 157 هـ وأخرى على نوعين ضربت عام 171 هـ  
ودراهم سكت باسم خلف بن الماضى عام 175 هـ وأخرى في وليلى نفسها باسم المولى  
ادريس الثانى عام 181 هـ وأخرى باسم المولى ادريس عام 183 هـ وأخرى باسم قيس  
بن يوسف عام نيف ومائة وثمانين هجرية نقش عليها ( لا اله الا الله وحده لا شريك  
له ) ( راجع مجلة هسبريس الجزء 23 عام 1936 ) .

والدينار كان وزنه يتراوح في الصدر الاول بين 4 غرامات و 729 و 4 غرامات  
و 25 وأيام المرابطين نقص وزنه حتى صار يتراوح بين 3,960 ثم ارتفع وزنه أيام  
الموحدين الذين حاولوا الرجوع الى السلفية وتقليد الاوائل حتى فسى وزن النقود  
الى 4,729 غراما كما كان أيام سيدنا عمر بن الخطاب وظل الدينار الموحدى المصمودى  
مربعا طوال قرن كامل ثم تغير شكله الى التدوير أيام المرينيين دون أن يتقص من  
وزنه ولكن في أيام الدولة العلوية حتى بلغ ثلاث غرامات ومن ذلك الحين أى منذ عهد  
المولى اسماعيل ابطال التعامل بالدينار الذهبى اللهم الا ذلك النوع الصغير التابع الذى  
ضرب بالرباط عام 1787 والذى كانت قيمته تعادل 40 موزونة وهكذا انتهى عهد  
المغرب بالثاقيل الذهبية التى استعيز عنها بمثاقيل قياسية من فضة فكان الدينار  
الفضى يزن 28 غراما ما بين سنتى 1760 و 1787 ويساوى ريبالا عام 1849 ويزن  
26 غراما عام 1899 وصار وزن المثقال القياسى يتناقص حتى بلغ 1,78 غراما ما بين  
سنتى 1903 و 1905 ميلادية .

وكان الدينار يساوى :

- 1 - فى الصدر الاول عشرة دراهم وستمائة فلس
- 2 - وأيام المرابطين والموحدين مثقالا وعشرة دراهم
- 3 - وأيام المرينيين والسعديين والعلويين 15 درهما

ثم صار الريال يساوى عام 1949 13 درهما ونصف درهم و 1,296 فلسا وفى  
عام 1899 صار الريال يعادل عشرين قرشا و 3,120 من الفلوس وفى عام 1788 ضربت  
فى اسبانيا سلسلة من النقود المغربية وكانت هنالك نقود تسمى بالزلاغى تتجزأ  
الى نصف فلس وثلاثة وربعة وخمسة .

وكان الدوبل ( وهو تكبير دبلون عند الاسبان ) يستعمل فى فاس ومسكورة  
وتونس وتساوى قيمته عند كل من المرينيين والحفصيين وبنى الاحمر فى غرناطة  
ما يعادل 13,50 فرنكا .

أما العملة التى كانت أساس التعامل بالمغرب فى العهد الحسنى فما بعد فقد  
وصفها الدكتور فسجيربر فى كتابه ( الدار البيضاء والشاوية عام 1900 ) حيث ذكر

ان أساس نظام العملة كان هو المثقال المستعمل مثلا في المعاملات العقارية والبيع  
بالمزايدة والذي كانت قيمته تعادل 30 سنتيما فرنسيا بالصرف الوقتي اذ ذاك وكان  
المثقال يصرف هكذا :

المثقال = 10 اوقيات

الاوقية = 4 موزونات

الموزونة = 6 فلوس

الفلس = 6 قواريط

غير ان هذه النقود كانت مجرد عملة تقديرية للحساب اما العملة المرائجة فهي :

النقود الذهبية : اللويز 20 فرنكا فرنسا

النقود الفضية :

الريال = الدورو ( الاسباني ) = 4 فرنكات

نصف ريال = 2 بسيطات = 2 فرنكات ( او فرنك او 60 قرش )

ربع ريال = فرنك واحد

1/10 ريال = 50 س اسباني = 40 س فرنسي

1/20 ريال = 25 س اسباني = 20 س فرنسي

عملة النحاس :

نقود اسبانية تساوي 10 او 5 س

موزونة واحدة تساوي اقل من سنتم

فلس يساوي عشر موزونة



الجرارات الحراثية

## الفصل التاسع :

### تطور النظام الجبائي

يذكر المؤرخون ان العرب عند ما فتحوا المغرب فرضوا على من لم يدخل الى الاسلام كلا من الجزية والحراج وكانت الجزية عبارة عن مقابل لما يؤديه المسلمون للدولة من الزكوات أما الحراج فانه كناية عن ثمن الارض التي تتنازل الدولة عنها للفلاح بعد ما تملكها بحق الفتح .

ولكن بعد ما اعتنق البرابرة الاسلام لم يعودوا يؤدون الا الاعشار والزكوات. وكانت الدولة الى جانب ذلك تتقاضى الخمس من استغلال المعادن التي توجد مناجمها في ارض مملكة للرعايا وتعتبرها كركاز فتطبق عليها الحديث الشريف ( في الركاز الخمس ) وفي اوائل المائة الثانية انتشر في المغرب مذهب الحوارج الذين كانوا يبثون آراء الشعوبية فحدثت قلاقل وعمت الفوضى فصار العمال المحليون يشقون كاهل الحواضر بضرائب مختلفة يفرضونها على المواد الضرورية وقد أشار الشريف الادريسي الى جبايات من هذا النوع كانت تطبق في اغمات .

ولكن لم يكد المرابطون يقبضون على زمام الحكم حتى الغوا جميع هذه الضرائب واقتصروا على الاعشار والزكوات فكانت ميزانيتهم تتوازن بهذه الموارد مضافة الى الجزية المفروضة على اليهود والمسيحيين والخمس المستخلص من غنائم الجهاد في بلاد الاندلس .

وعندما استولى عبد المومن على العرش واحتل افريقيا الشمالية بكاملها مسح الارض بالفراسخ والاميال ثم اسقط من التكسير الثلث في الجبال والغياض والانهار والطرق وفرض على الباقي الحراج والزم كل قبيلة بقسطها من الزرع بدعوى ان البلاد فتحت عنوة ثم فرض على الشعب علاوة على الزكوات والاعشار زكاة الفطر ومكوسا على المبيعات وزاد ماسينيون وضريبة المباني وواجبات الابواب كما زاد دوزي الرتبة التي كانت تتقاضاها من الناس المراكز المسلحة في مقابل تأمين الطرق وفي أيام يوسف بن يعقوب المريني وأبى سعيد عثمان بن يعقوب وضع نظام جبائي جديد اقتصر فيه على الزكوات والاعشار الدينية فيما يخص الرعايا المسلمين والجزية فيما يخص الذميين وورد في الوثائق المغربية ان الجزية كانت فردية ( ديناران وثمان



دينار للفرد ) ولكن صارت جماعية في القرن العاشر حيث ذكر الحسن بن محمد الوزان ان يهود فاس كانوا يؤدون للدولة اربعمائة دوكا في الشهر والدوكا تساوى بصرف القرن الماضى نحو السبعة فرنكات ونيف .

وكانت هنالك فيما رواه ماسينيون في كتابه المغرب في اوائل القرن السادس عشر . (ص179) ضرائب أخرى في شكل ذعائر وجبايات على الفنادق وأخرى على المساجين ( دوكا وربع ) علاوة على الهدايا التي تقدمها الرعية للسلطان وكان أهل البادية يؤدون زيادة على ذلك الحراج موزعا على ما يسمى ( بالزويجة ) وهى عبارة عن مساحة من الارض يمكن لزوج من البقر ان يفلحها النائبة التي كانت تدفع وبعبارة أخرى نحو الثمانية هكتارات وكانت الى جانب ذلك فى مدة يوم واحد للمخزن حسب ( الكانون ) أو على عدد رؤوس أفراد العائلة .

وكانت المدن تؤدى ضرائب غير مباشرة تعرف بالمستفاد كمانص على ذلك الحسن بن محمد الوزان ولكن ابا سعيد المرنى استعاض عن جميعها بالمكس والقبالة ففيما يخص الاولى كانت تبلغ بفاس مثلا 2 فى المائة وتؤخذ عن كل شئ عدا الابقار والدجاج والخشب ( الجمال والغنم تعفى كذلك فى بعض الاحيان ) وكانت النسبة تصل احيانا الى 25 فى المائة وكان المخزن يتقاضى عن كل مقطوعة من الثوب المستورد من أوروبا والمبيع فى القيسارية قدرا معلوما من المال .

وكانت هنالك ضرائب أخرى كالضريبة المفروضة على بائعى اللحوم المشوية فى الشوارع أو على الحضر وكالتى كانت تؤدى عن المكاييل فى أسواق الحبوب وهى أشبه بالضريبة التى تؤدى اليوم فى رحبة الزرع .

ولكن هذه الانظمة الجبائية تغيرت منذ القرن العاشر الهجرى حيث نظمت جباية النائبة فى شكل جديد حله الاستاذ كور وقد تم ذلك عام 1552 م حسب رواية ما سينيون أى أيام محمد المهدي السعدى وفى 1580 أى أيام المنصور أعيد نظام الحراج ثم تطورت الواجبات الجمركية فأصبحت تؤدى عن السكر والفضة والذهب واسترد بيت المال أموالا طائلة من احتكار بيع الكبريت والفولاذ والتبغ الى أن استعاض عن الاعشار الدينية عام 1901 بضريبة الترتيب .

وقد رسم الحسن بن محمد الوزان لوحة مهمة عن مداخيل الواجبات الجمركية ( والنكاس ) يتبين منها أن جميع نواحي المغرب كانت خاضعة للنظام الجبائى المخزنى فقد بلغ المدخول السنوى فى أحد الاعوام 300 000 - دوكة أى ما يعادل 4350000 فرنك بتقويم القرن العاشر أو ستة وعشرين مليون فرنك حسب قيمة أول القرن الحالى والذى يؤكد لنا الارقام التى أدلى بها ليون الافريقى ويدلنا على أن المداخيل الجبائية بالمغرب لم تتغير تقريبا خلال ثلاثة القرون المالية ما أورده الاستاذ هوسط عن السنوات المتراوحة بين 1760 و 1768 حيث ذكر ان واجبات الجزية على الذميين

بلغت مائة الف مارك والجمارك 320000 بياستر والاعشار والزكوات 270000 بياستر والنكس ( من قبالات وذعائر واحتكارات ) 857000 والهدايا 250000 فيكون المجموع 865000 مارك و 932000 بياستر .

وكانت قيمة البياستر الاسبانية تعادل خمسة فرنكات و 43 سنتيما والمارك قيمته قيمة الفرنك بحيث يقدر المجموع بستة ملايين مارك وبما ان المارك في ذلك العصر كان يساوي 15/1 دوكا مغربية ذهبية حسب هوسط فان ستة الملايين المذكورة تعادل 400000 دوكا أى ما يقارب الرقم الذى ادلى به الحسن الوزان . وقد ورد من جهة أخرى فى مذكرات القنصل الفرنسى شينى عن سنة 1767 بالضبط ان البواخر الفرنسية وحدها صدرت فى المغرب بضائع قيمتها 647000 ليبرة وجلبت اليه نحو نصف هذه القيمة وفى عام 1773 بلغت قيمة الواردات 400000 والصادرات 760000 ومعلوم من جهة أخرى أن معاهدة 28 مايو 1767 تحدد التعريف الجمركية بعشر قيمة البضاعة الواردة وقد نص عقد الجزيرة فيما بعد على ذلك على أن التعاريف الجمركية المفروضة على الصادرات تتجاوز العشر اذ أنها تتغير تبعا لنوع البضاعة وحاجيات الدولة ويكفى أن تعلم أن المدخول الجمركى بلغ عام 1707 241000 ليبرة اديت عن بضائع لا تتجاوز قيمتها 647000 ليبرة .

وقد تضخمت الموارد الجمركية تضخما مطردا أصبحت معه تسد مسدا مهما فى موارد الدولة التى قلت حاجتها الى ضرائب أخرى ويكفى أن 223 باخرة اجنبية دخلت عام 1851 الى المراسى المغربية مثقلة بالقطنيات والحراير والفولاذ والحديد والسكر والشاي والقهوة والمواد المصنوعة وفى الصويرة وحدها بلغت قيمة البضائع 5583158 فرنكا على ان احتكار الدولة المغربية لحقوق الاصدار واليراد كان يدر عليها مبالغ أخرى ومن جملة المواد التى كان المخزن يحتكر اصدارها أو توريدها لفائدة بيت المال أيام المولى عبد الرحمن قشرة الخفاف وجلود الحيوان والكبريت والاصباغ والقهوة والسكر والشاي والخشب والنحاس والزنك والرصاص وملح البارود والكيف ومناطق الصوف وكان هنالك نوع من الاحتكار يمكن ان يسمى احتكار جلب أو تصدير بضاعة من البضاعات فتنازلت عنه الى تاجر أو طائفة من التجار فى مقابل عوض مالى مهم وقد ورد فى عدة مصادر ان الموارد الجمركية المغربية بلغت سنويا أيام المولى الحسن نحو العشرة ملايين فرنك .

تلك صورة عن نظام المغرب الجبائى فى مختلف العصور عن الاساليب التى عمد ملوك المغرب الى استخدامها فى عهد السعديين والعلويين فى استغلال الميزان التجارى الدولى لتضخيم الموارد الجمركية والاستغناء بها عن ائقال كاهل الشعب بمختلف الجبايات .

القسم الثالث:

المظهر الحضاري العسكري والديبلوماسي

## الفصل العاشر:

### الجيش المغربي

ان الجيش المغربي الذي هو مظهر من مظاهر حضارتنا وقوام جوهرى لسيادتنا قد اعتوره أطوار شتى فقد كان في أوائل العصر الاسلامي جيشا غير نظامي يتكون في معظمه من المتطوعين أو من أولئك الذين تعبثهم السلطة القائمة لغاية مؤقتة فكنت تجد في نفس الجيش أشتاتا من مختلف القبائل كما وقع في عهد موسى بن نصير الذي جاز الى الاندلس بالمصامدة وفلول من القبائل البربرية الاخرى المنتمية الى افريقية والمغرب ولم يكن العنصر العربي يمثل في هذه المجموعة سوى طائفة معدودة حيث لم يرافق مثلا الجيش البربرى الى الاندلس تحت امره طارق بن زياد سوى سبعة عشر رجلا من العرب يعلمونهم القرآن وشعائر الاسلام كما يقول ابن عذارى المراكشي في البيان المغرب ( ص 37 ) ويظهر أن الجيش الافريقى كان مجهزا اذ ذاك بما يتطلبه العصر من عدة اذا اعتبرنا الانتصارات التى أحرزها رغم قلة عدده على جيوش العلوج المشهورة بحسن نظامها وقوة جهازها ولعل مثالا واحدا يعطينا نظرة عن الجهاز العسكرى العربى اذ ذاك وهو أن موسى بن نصير انصرف سنة 95هـ من الاندلس الى افريقية مجيزا الغنائم التى أفاء الله عليه بها فى المراكب الى طنجة ناقلا اياها على العجلات الى الشرق ( البيان ص 38 )

ولعل الجيوش الافريقية البربرية ظلت مبعثرة تتجاذبها القبائل من البتر والبرانس التى ما فتئت العصبية القبلية تمزقها الى ان جاء الاسلام فوحد هذه الصفوف والتأمت تحت ظله مختلف القبائل منذ عام 85 وهو التاريخ الذى تم فيه اسلام أهل المغرب الاقصى تحت ولاية طارق ابن زياد فحولت المساجد التى كان المشركون قد بنوها الى القبلة ونصبت المنابر وطلق البربر يدخلون فى دين الله أفواجا حيث تقبلوا الدين الجديد كما يقول ميشوبلير فى محاضراته بصدر رحب لانه خلصهم من الارهاق الجبائى وجعلهم سواسية لا فرق بين عربى وعجمى الا أنه ما كاد يمر نحو ربع القرن حتى ولى عمر بن عبد الله الماردى عاملا على طنجة من قبل عبيد الله بن الحبحاب فاساء السيرة واعتزم تخميس البربر زاعما أنهم فىء للمسلمين فاستعرت أول ثورة بربرية حيث شق ميسرة المدغرى عصا الطاعة عام 122هـ ووجدت دعوة الخوارج ميدانا خصب لنشر دعايتها على أساس ما يقتضيه الاسلام من مساواة .

وبقيت الحالة متارجحة بين الاستقرار والفوضى الى أن ظهر الادارسة في المغرب فتجمعت حولهم القبائل التي لم يسبق لها ان تكتلت فيما قبل فكانت ترى زواغة وزناة وسدراتة وغياطة ونفزة ومكناسة وغمارة ومطعرة ( أو مدغرة ) التي ساندت ميسرة المذكور ومغيلة وبنى يفرن ومغراوة تسير جميعا في اركان الفاتح العربي مختربة تامسنا الى الاطلس الكبير الى السوس الاقصى فكان للمولى ادريس حينذاك جيش من المتطوعين البربر ثم مالبت هذا الجيش ان قوى وترعرع وانتظم حيث انضم اليه في عهد المولى ادريس الثاني خمسمائة فارس من افريقية والاندلس ينتمون للقيسة والازد والحزج ( زهرة الآس ص 13 )

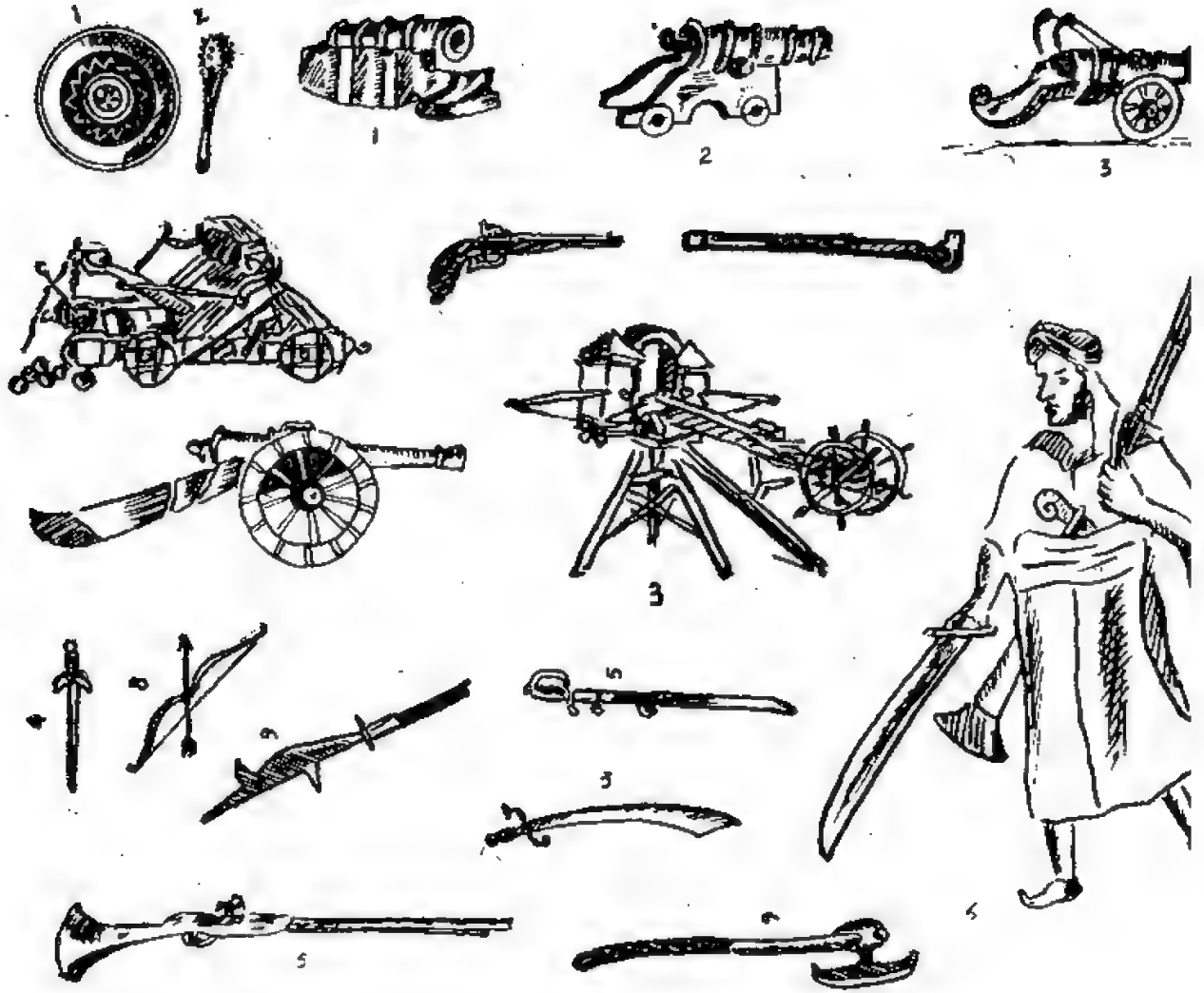
وفي عهد المرابطين ظهر جيش نظامي جديد (I) درب على الحياة العسكرية وانقطع لها غير ان هذا العدد من الجنود التنظيميين لم يكن شيئا يذكر بجانب أجناد القبائل التي يستنفرها الامير المجاهد عند الاقتضاء وقد تمكن الامير يوسف بن تاشفين من توحيد الاندلس واسترجاع حصونها وقلاعها من يد الجلالقة وغير الجلالقة ووحد المغرب بفضل استئصال جيوشه المظفرة من الصحراء الى الجزائر الى قشتالة ببلاد الاندلس حيث ترك حامية قوامها ثلاثة آلاف من البربر وقد توفر لامير المسلمين المظفر جيش عتيد استعرضه رسميا في حصن لركة في جوازه الاول بالاندلس (المعجب ص 77) كما استعرض حفيده تاشفين الجيش المرابطي في تلمسان قاعدة المغرب الاوسط عام 538 هـ (2) ( الحلل الموشية 108 ) ولم يكن لهذه الجنود على ما يلوح ديوان خاص لتسجيلها (3) كما كان يجرى اذ ذاك في نفس العصر وقبله في كثير من الاقطار الاسلامية الاخرى والظاهر ان المرابطين كانوا كالفاطميين اول امرهم يحشدون بغير ديوان انما كان يكتب الى رؤساء القبائل فيحشدون من يليهم وامتدت رقعة المغرب في عهد عبد المومن بن علي الى طرابلس فكان له جيش عتيد اقتلع جدور الاستعمار النورمندي من افريقية بفضل اسطوله الذي كان كما يقول اندري جوليان في تاريخ افريقية الشمالية ( اول اسطول في البحر المتوسط (4)

(1) - في عام 454 ادرج يوسف في جيشه الاغزاز والرماء « فكمل له في جيشه ازيد من مائة الف فارس من صنهاجة وجزولة والمصامدة والاغزاز ( الانيس ج 2 ص 41 )

(2) قصة استعراض الجيش من طرف عبد المومن بمحضر الوزير ابن عطية ( المعجب ص 122 )

(3) - تحدث صاحب المعجب عن كتابة ديوان الجيش في عهد الموحدين (ص162)

(4) - ذكر ابن خلدون في تاريخه ان يعقوب المنصور امد صلاح الدين الايوبي بمائة وثمانين اسطولا لمقاتلة النصاري بفسطاطين ثم قال : « وهذا دليل على اختصاص ملوك المغرب يومئذ بالاساطيل الجهادية وعدم غناية الدول بمصر والشام لهذا العهد »



### الآلات الحربية القديمة

ودخلت العناصر الهلالية العربية في الجيش الموحدى الذى اتسم بطابع جديد ضاعف قوته وكتل صفوفه ولم يكن الجيش الموحدى ولا الجيش المراتبى قبله يخلو ان من مرتزة مسيحيين بحيث يبرهن وجودهم عما كان يذكى أمراء المغرب من روح التسامح ولكن أجل ما كان يلفت النظر فى هذا الجيش الفتى علاوة على نظامه واستماتته الاشعاع الروحى بين صفوفه فقد ذكر المؤرخ ميلية فى كتابه عن الموحدى ان فى كل فيلق من الفياق الموحدية كانت الصلوات تقام بانتظام ولم يكن ذلك من قبيل التزمّت البارد ولكنه كان ينم عن ادراك صادق لمعنوية هذه الشعوب التى تكن تصل بينها سوى رابطة الدين فكانت كل قبيلة وكل فخذة تحت امرة قادتها الطبيعيين اللهم الا فيلق العبيد (ص124) وقد تحدث المؤرخ المذكور عن حملة الموحدى فى افريقية فذكر ان عبد المؤمن زحف على رأس مائة الف مجاهد وأنه لم يسبق لحملة

ان سارت تحت قيادة اجدى واحسن فكنت ترى هذه الجماهير تخترق حقول الزرع دون ان تدوس سنابلها وفي كل مرحلة كان الجيش يصطف بكامله وراء امام واحد لاقامة الصلاة (ص 80) وقد نظم فى مراكش أيام عبد المؤمن تدريب ثلاثة آلاف من الطلبة بالاضافة الى العلوم التقليدية على ركوب الخيل والسباحة والرمايه والتجديف فى البحيرة المؤسسة لهذه الغاية وقد استنفر عبد المؤمن لغزو الاندلس بعد ذلك الف جندي من كل قبيلة استقر معظمهم بالعدوة واندراج كذلك فى جيش الموحيدين فريق من الاغزاز والاكراذ الذين نزحوا من الشرق الى المغرب فتقبلهم الموحدون لمزاياهم العسكرية ولبت هذا الجيش فى نمو مطرد حتى بلغت مقاتلته فى عهد الناصر ستمائة الف ما بين رجالة وفرسان ينتمون للمغرب وافريقية أجازوا كلهم لانجاد الاندلس ( الذخيرة السنية ص 41 ) ( I )

وقد شمل الجند المرينى الذى اتسم بنفس القوة وتوفر على نفس العتاد بل أشد - قبائل زناتة وقبائل العرب المستقرة فى المغرب فكان من العرب القرمسان ومن الاندلسيين حملة الاقواس ومن المرتزقة النبالون والرماة .

ومعلوم ان العرب هم الذين اخترعوا العتاد النارى كما أكد ذلك جوستاف لوبون فى حضارة العرب (ص 616) وأوضح ابن خلدون أن أبا يوسف المرينى حاصر سجلماسة عام 872 بالمجانيق وأكد ذلك صاحب ( الذخيرة السنية ص 158 ) ويفهم من هذا ان المرينيين كانوا أول من استعمل الاسلحة النارية الا أن صاحب الحلل الموشية تحدث عن استعمال ابن عباد للسهم والمطارد والرعادات وغير ذلك من الآلات فى الجواز الثانى لابن تاشفين الى الاندلس أى عام 481 هـ ( ص 55 )

على أن هناك كثيرا من العادات العسكرية يظن أنها حديثة العهد فى حين كان العمل جاريا بها منذ عدة قرون من ذلك - وان كان مخالفا لما يجرى به العمل الآن ولكن اصل الفكرة موجود - ما رواه صاحب الذخيرة السنية نفسه من أن رايات العدو نشرت فى عهد أبى يوسف المرينى منكسة فى أعلى منار القرويين ومنار جامع الكتبيين بعد انتصار الجيش المغربى فى الاندلس ( ص 174 )

وفى عهد السعديين اقتبس المغرب من تركيا نظامها العسكرى فى كثير من مظاهره واسند المنصور الذهبى الى ضباط أتراك تدريب العلوج والاندلسيين والعبيد الذين ضخم بهم جيشه بعد احتلال السودان

وقد أكد سوردون ان قبائل الجيش ( الكيش ) اسندت قيادتها الى ضباط

---

( I ) - كان فى جيش عبد المؤمن 380 000 فارس و 100 000 راجل كلها رابطت

فى سلا ( الانيس المطرب ج 2 ص 167 )

يسمون باشوات وهو لقب تركي دخل لأول مرة في العهد السعدي الى المغرب (فرنسا في افريقيا الشمالية ص 154 )

وقد بلغ عدد الجنود المرابطين في فاس وحدها في عهد المنصور 22000 من بينهم 4000 مخازنية كلهم بكساوى الملف والحرير والكتان ( تاريخ الدولة السعدية ص 73 ) وكان عدد الفرسان في مراکش اثني عشر ألفا ( نفس المصدر 74 ) والسلطان مولاي عبد الله السعدي هو الذي ادخل الاندلسيين في الجيش المغربي (ص 38) وقد كان لولده المسلوخ ثلاثون ألفا من بينهم 1800 اندلسي ( ص 48 ) في حين أن مولاي عبد المالك هو أول من أذبح أهل فاس في سلك الجيش مع ما كان له من رجال الاندلس وشرذمة قليلة من الترك ( ص 53 )

ومما يدل على أهمية الجيش السعدي (I) أن إحدى محلات مولاي محمد كانت تحتوى على أكثر من 150 نفضا أهدي منها مولاي عبد المالك الى الاتراك عشرين وما ينيف على مائة من الجرائحين والحجامين وأدوات للمجاريح وأردية الكتان للرباطات والجباثر وكان يوتى بالمجاريح من ساحة القتال الى المحلة فتشدد جراهم ويصنع لهم الدواء في الحين ( ص 51 ) وكان الملك قرر التجنيد العام في ظروف خاصة حيث استنفر السلطان مثلا في فاس وأحوازاها لمعركة وادى المخازن كل بالغ من عرب وبربر ووجه قوادا لمختلف القبائل والمدر للسهر على التعبئة العامة ( ص 60 ) وبفضل هذا الجيش العتيد تمكن المغرب من الانتصار على البرتغال في وقعة وادى المخازن التي لم ترفع البرتغال الرأس بعدها طوال عدة عقود من السنين كما استطاع المغرب أيضا تأمين البلاد حيث ألزم شيوخ المداشر ورؤساء القبائل ضمانا ما يضيع في مقاطعاتهم «فانتشرت العافية وظهرت الهدنة من باب تازة الى أقصى سوس» (ص 66)

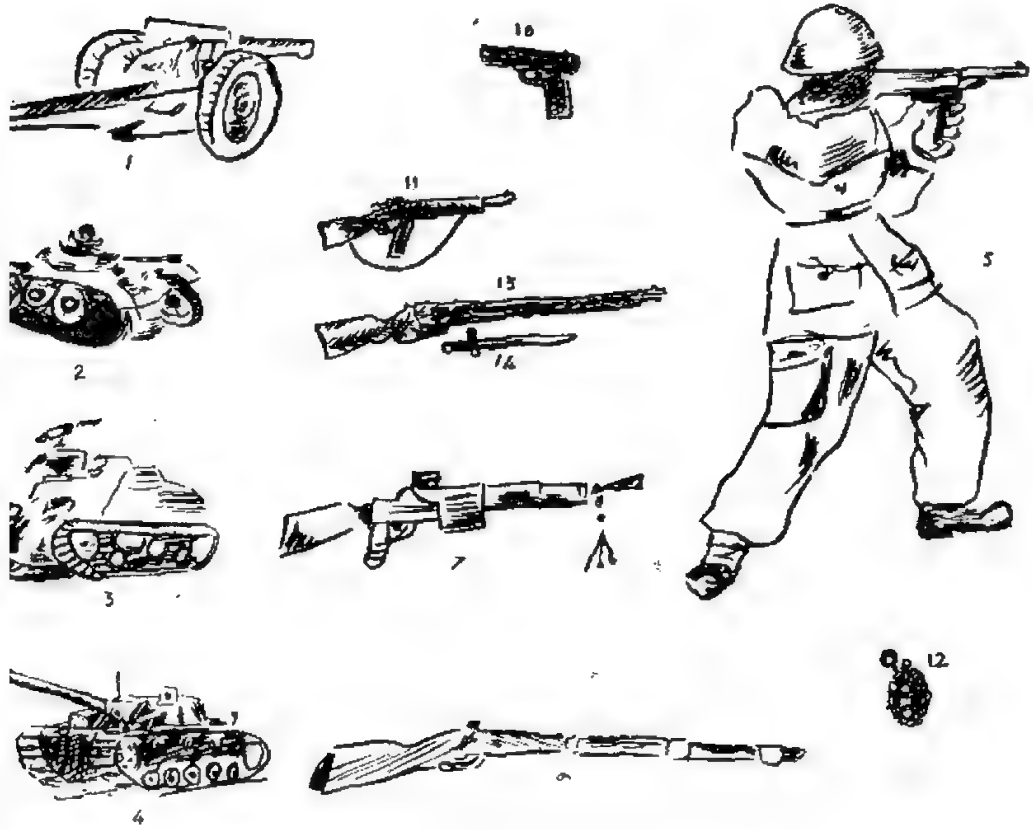
وفي العهد العلوي بدأ نظام جديد انقسمت بموجبه البلاد الى ثلاث مقاطعات عسكرية تافيلالت ومراكش وفاس وأصبحت هذه المقاطعة الأخيرة بعد قليل مركز قيادة الجيش المغربي بعد مكناس في العهد الاسماعيلي

(I) - ذكر جان نيكو في مذكراته التي كتبها عام 1561 ميلادية ان الامير محمد السعدي فتح الجديدة بجيش يبلغ مشاته 12,700 وفرسانه 37,000 علاوة على 13,500 جندي آخرين من الطلائع التي تعبد الطرق و 24 مدفعا منها مدفع يسمى الميمونة الذي كان يبيت الرعب في النفوس وكان المغاربة والبرتغاليون يستخدمون الالغام والآلات المضادة لها -

وفي عام 1610 قرر المجلس الهولندي السماح السلطان مولاي زيدان بصنع ثلاث أو أربع بواخر حربية في الاوراش الهولندية ونقلها الى المغرب (وثائق دو كاستر ج I ص 519)



وكان عشرات الآلاف من المتطوعين يتواردون من شرق البلاد وجنوبها للانخراط في الجيش الاسماعيلي العتيق الذي تكونت نواته الاولى من شراكة ( المغرب الشرقى ) والاولاد من الجنوب واحواز الرباط والشراردة وكذلك العبيد الذين كانوا يربطون في مكناس وتنضم الى هذه العناصر القارة فلول من سوس وعبدية والمنابذة والرحامنة واولاد احمر .



#### المعدات العسكرية الحديثة

وكان الى جانب هؤلاء الجنود المرابطين في القصبات فيالق من المخازنية الذين يقومون بحراسة السلطان او الباشوات وكان عمال المدن يشرفون على الجنود المرابطة ويراقبونها في منطقة نفوذهم ويظهر ان المغرب كان مقسما الى سبع نواح (يزيد العدد وينقص )

ناحية طنجة وفي ضمنها تطوان واصيلا وفجيج ووجدة (2) وناحية العرائش التي يمتد نفوذ جيوشها الى وزان والقصر (3) وناحية تالة مع الجديدة وآسفي وأزمور (4) وناحية مراكش مع الصويرة واكادير وتازودانت وسوس والاطلس الكبير وتافيلالت 5 وناحية الرباط مع مهدية والدار البيضاء 6 وناحية مكناس مع زرهون (7) وناحية فاس مع تازة وقصبات الريف .

وهكذا كانت معسكرات الجند منتشرة في جميع انحاء المغرب ففي ناحية فاس مثلا كنت تجد من الخيالة 3000 من شراكه و 4500 من شراردة و 2000 من الاودية وكلهم تابعون لقائد المشور على أن جميع الرجال الاصحاء المنتمين لمختلف القبائل والحواضر كانوا خاضعين لمبدأ التجنيد العام أما لتكوين جيش الريف واما لتشكيل فيالق تعباً عند الحاجة لمواجهة القلاقل في جهة من الجهات .

وفي مجموع هذه النواحي أقام المولى اسماعيل بالنقط الاستراتيجية معاقل (قصابي) ترابط فيها حاميات يتراوح افرادها بين 400 و 3000 وتمدها القبائل بالخير والمؤن وقد أحصى من هذه الحصون 76 في غربي البلاد وشمالي الاطلس على الخصوص وكان القائد في كل قسبة هو المسؤول عن سلامة منطقة حراسته حيث يجب أن تسود الطمانينة والهدوء وقد عاشت البلاد خلال هذا العصر في بحبوحة من الامن الاستثنائي كما يقول اندري جوليان في «تاريخ افريقيا الشمالية»

ولم يكن هنالك ديوان عام للجيش على ما يلوح اللهم الا فيما يخص العبيد وأهل سوس الذين كانوا يمثلون العنصر النظامي في الجيش المغربي فكانت أسماؤهم وحشياتهم تقيّد في سجلات خاصة وكان المولى اسماعيل أول الامر يستمد جنده من القبائل حتى اطلعه عمر عليليش على دفتر فيه أسماء العبيد الذين كانوا في جيش المنصور السعدي وكانوا منتشرين في مراكش وأحوازها وقبائل الدير فجمع منهم 3000 ، وهذا يدل على أن السعديين كان لهم ديوان عسكري (I)

وما زال البعض من هذه الدفاتر محفوظة في الخزنة الزيدانية ، وتوجد دفاتر أخرى تحتوى على لوائح جنود القبائل وكان في كل قبيلة بجانب السجل الجبائي سجل خاص بالخدمة العسكرية يحرق في نسختين .

وقد أشار الناصري الى ان قضية تجنيد العبيد مذكورة مفصلة في الكناش الكبير الاسماعيلي (ج 4 ص 42) ومن بينهم أهل الديوان المجلوبون من القبائل العديدة على وجه الجندي .

(I) جمع عليليش بأمر من قاضي القضاة محمد العياشي نحو سبعين الفا من العبيد الحقها بمشرع الرملة وألحق بباب السلطان نحو العشرة آلاف من الذكور ومن الاناث عشرين الفا

وكانت الى جانب هذا الجيش عناصر من المخازنية تشكل الحرس الملكي منها 4000 من العبيد (300 فارس) علاوة على العناصر التي تنتمي الى القبائل التي تمتد البلاد بالرقاصة الفرسان والمسيخرين والعساكر الموزعة على المدن والمراكز المحقة غير أن هذه القوة لا ترابط الا للدفاع أما الجيش فإنه يستمد عناصره في الحقيقة من القبائل التي يتعين على كل منها مبدئيا تجنيد طابور يتركب من 500 رجل يحمل اسم القبيلة ، وكان مجموع هذه الطوابير يحتوى على 25.000 المشاة النظاميين مع طليعة من الفرسان وفرقة من الطبجية أو الرماة .

أما جيش المشاة غير النظامي الذي برهن عن استماتته خلال حرب تطوان (1278 - 1859) فقد بلغ 25.000 وكان الطابور القبلي يبلغ أحيانا 3000 أو يقل عن ذلك تبعا لأهمية القبيلة حيث يجند فرد من كل عائلة وربما تزايد عدد أفراد الطابور في القبائل الكبرى فأصبح عبارة عن آلاى أو فيلق ؛ أما الطابور العادى وهو المحتوى على 500 جندي فإنه كان تابعا لقائد الرحي الذي لم يكن شبيها بالكولونيل ، كما يظن البعض ولكن مجرد قائد معسكر ، كما لاحظ ذلك روني لوكليير في بحث كتبه عن الحالة في المغرب سنة 1907 ، وكان لقائد الرحي خليفة يساعده (وهو أشبه بالليوتنان كولونيل حسب البعض) وكل رحي تنقسم الى سرايا من مائة رجل تحت أمرة قائد المائة الذي يريد بعضهم تشبيهه بالقبطان ، والمائة تتوزع بدورها الى جماعات يتركب كل ليف منها من 12 شخصا عليهم مقدم (أو نقيب عسكري = سوزوفيسي) وهذه تنظيمات مبدئية لاندري - لعدم ورود ذلك فيما نعرف من مصادر - هل كانت تتحقق دائما في كل عصر من عصور تاريخنا الحديث على أن الدولة كانت تستعين عند الحاجة بالمتطوعين البالغين للسيد الفراغ الملحوظ أحيانا في صفوف الجيش ، أما في الحواضر فإن الطابور كان يتسم بأهمية خاصة فيناهم أفراد الالف ولا ندري هل كانت المدن كلها تساهم في حركة التجنيد هذه أم لا: الا أن الصحافي الانجليزى هاريس يحدثننا أن مولاي الحسن عمل على تنمية الجنود المشاة في هذه الطوابير الحضرية بفرض مدد من الجنود على كل مدينة باستثناء مدينة مراكش .

وهناك ما يدل على أن مولاي اسماعيل ربما حصن بعض الحواضر بالجند استجابة لليوسى الذي لاحظ عليه عدم عمارة الثغور وبدائية العتاد الشعبي كالعصى والمقاليع ، وطلب منه تفقد السواحل من قلعية الى ماسة .

على أن الحيلة الذين بلغ عددهم نحو العشرة آلاف كانوا يعبأون ويوزعون بنفس الطريقة حيث كان الطابور من الفرسان أشبه بكوكبة من 600 فارس ولم تكن كتائب الحيلة تتدخل في العمليات الا عند الاقتضاء في حين أن المشاة كانوا دائما على ساق لمواجهة الطوارئ أو خوض غمار «الحركات» وكان قسط مهم من هؤلاء

الفرسان لا يجندون من بين القبائل الا عند الضرورة الحربية الملحة أما في عهد السلم فإن الحيلة لم تكن تعدو كتيبة من فرسان الدرك أو الحرس الموزعين على مختلف المراكز العسكرية ( 400 فارس في القلعة من القلاع الست والسبعين ) ، وفي عهد مولاي عبد العزيز أصبح الفرسان يجندون خاصة من قبائل عبدة والوداية وشراكة والبخاري والشراردة والرحامنة والمنابذة وحربيل .

أما جنود المدفعية فإن عددهم كان يتراوح بين 2000 و 4000 رجل يربط جزء منهم في فاس ووجدة ، وقد استعمل المولى اسماعيل « المدافع والمهاويس والمجانيق وسائر آلات الحصار والكور والقنابل (البنب) وجند في تادلا وحدها 25000 من الرماة (الاستقصا ج 4 ص 38) وعندما فتح جبال فازاز غنم 10.000 من الخيل و 30.000 بندقية (مكحلة) مما يدل على ان البربر كانوا مسلحين على أحدث منوال اذا روعى مستوى العتاد في ذلك العصر ، على ان المولى اسماعيل لم يترك للقبائل لا خيلا ولا سلاحا ، اللهم الا عند العبيد والودايا وآيت يموir وأهل الريف المجاهدين في سبتة التي حاصرها أيضا 25.000 من أهل فاس وكان جيش الودايا يحتوى على ثلاثة ارساد : أهل سوس والمغافرة والودايا .

وعند فتح العرائش وضع الجنود «المينات» (البارود) تحت خندق سور المدينة الموالي للمرسى ، ثم أوقدوا النار فنقطت وسقط جانب من السور واقتحم الجند المدينة حيث غنموا 180 مدفعا ، وقد استعمل الجند المفرقات في الحصار عند تحرير مدن الشمال ، وكانوا يصنعونها بأنفسهم كما استعملوا اساليب راقية في الهجوم (طنجة وناحيتها ج 7 ص 83) (I)

(I) - بلغ عدد المراكب في دولته عشرين كسارا وثلاثين من البوارج (الفرايط) وبلغ عدد قواد البحر ستين قائدا كلهم بمراكبهم وبحريتهم وبلغ عسكر البحرية الفا من المشاركة وثلاثة آلاف من المغاربة ومن الطليجية أى رجال المدفعية الفين وبلغ عسكره من العبيد خمسة عشر الفا ومن البيض سبعة آلاف وأما عسكر القبائل الذى كان يغزو مع الجند فمن الحوز ثمانية آلاف ومن الغرب سبعة آلاف . وكان لدى سيدى محمد بن عبد الله 50 مركبا منها ثلاثون من الفرايط تحتوى على 60 قائدا وخمسة آلاف بحار والفين من الطليجية و 15000 من العبيد و 7000 من الاحرار و 8000 جندي من الحوز و 7000 من الغرب

- وذكر محمد بن القاسم المراكشى في كتابه الحلل البهجة في فتح البريجة أن السلطان محمد بن عبد الله وصل الى البريجة (أى الجديدة) في رمضان عام 1182 فشرع نصارى البريجة فى ارسال المجانيق من أسوارها فتقع وراء المحلة فامر السلطان بضربهم بالكور والبنب وهو شئ على قدر القدور مصنوع من سبعة معادن وزن كل واحد يزيد على القنطار ففرت سفن النصارى وغرقت أربعة زوارق منها وانهزم النصارى واسترجع المغاربة المدينة .

وفى العهد الحسنى كانت لفرقة الطبجية هذه عشرون بطارية من نوع كروب وشنايدر أو من نوع رشاشات «ماكسيم» وكان المشاة يستخدمون البنادق من طراز «شاشبو» أو «مارتينى هانرى» المصنوعة بفاس على حق خمس فى اليوم ، أما القارس فانه كان يستعمل الحراب والرماح والمسدسات والسيوف والخناجر والبنادق (I) وقد عمد السلطان مولاي الحسن من أجل تجهيز القبائل بالعتاد العسكرى وتمكينها من الدفاع عن حوزة البلاد بجدوى - الى تكديس مختلف الاسلحة بفاس كما سلك نهجا مرنا فى مدافعة الدول حضها لبعض وتحقيق توازن يهدف الى الحيلولة بينها وبين أى تدخل فى شؤون البلاد فأسند الى ضابط انجليزى قيادة احد الفيالق والى بعثة من الخبراء الفرنسيين لتدريب العسكرى للمجنود المغاربة ، كما أناط بضباط ايطاليين ادارة مصنع الاسلحة بفاس وكلف مهندسا المانيا لبناء برج بالرباط ، وقد سبق للملوك العلويين ان أقاموا عدة أبراج فى كبريات المدن مثل برج صقالة الذى بناه سيدى محمد بن عبد الله عام 1190هـ (1776م) فى الرباط على يد أحد الانجليز وبرج الصراط الذى تم بناؤه أيضا على يد الانجليزى المذكور عام 1169 (1756 - 1755م) وبرج الدار الذى شيده بعد ذلك المولى عبد الرحمن عام 1239هـ (1824م) وكلها فى نفس المدينة .

وقصبة الاوداية التى بنيت أيام المرابطين كانت مركزا لجند الاوداية الذين تاروا فى فاس أيام المولى عبد الرحمن فطردهم من فاس عام 1248هـ (1833م) ومحاكمهم من ديوان الجيش وشتتهم فى البلاد فاستقر بعضهم فى قصبة الرباط المذكورة وقد بلغت حامية ابى رقراق 2000 من الرماة والبحارة .

وقد تضخم عدد «القصابى» والقلاع حيث أسس المولى اليزيد وحده 16 قلعة علاوة على الست والسبعين قلعة الاسماعيلية وجهر كل واحدة منها بـ 20 مدفعا .

أما قيادة الجيش فانها ترجع فى الواقع الى السلطان الذى يعتبر القائد الاعلى الذى يشرف بنفسه على الحركات المهمة وقد لوحظ ذلك منذ عهد الادارسة ثم فى أيام المرابطين حيث نبه عبد الله بن ياسين أبا بكر بن عمر اللمتونى الى أن مهمه الامير ليست هى القتال وانما تنحصر فى الاشراف والتوجيه ، ولم يكن العلاف

(I) - كان مولاي الحسن يحضر تدريب الجند كل اثنين ويستعرض الجيش كل أربعاء (سوردون - فرنسا فى افريقيا الشمالية ص 201) وكان مولاي عبد العزيز يستعرض الجند فى المصلى بفاس .

الكبير هو وزير الحربية بكل معنى الكلمة وانما كان صلة وصل بين الملك والجيش يسهر على تموين الجند - طبقا لمقررات السلطان - بالميزة والعتاد ، كما ينفذ الاوامر الملكية فيما يخص تعيين الضباط والقادة وكان العلاف يمسك سجلا للعسكر يقدمه للسلطان يوميا مذيلا بامضاء الصدر الاعظم حيث تسطر لائحة الجند مع التغييرات الطارئة .

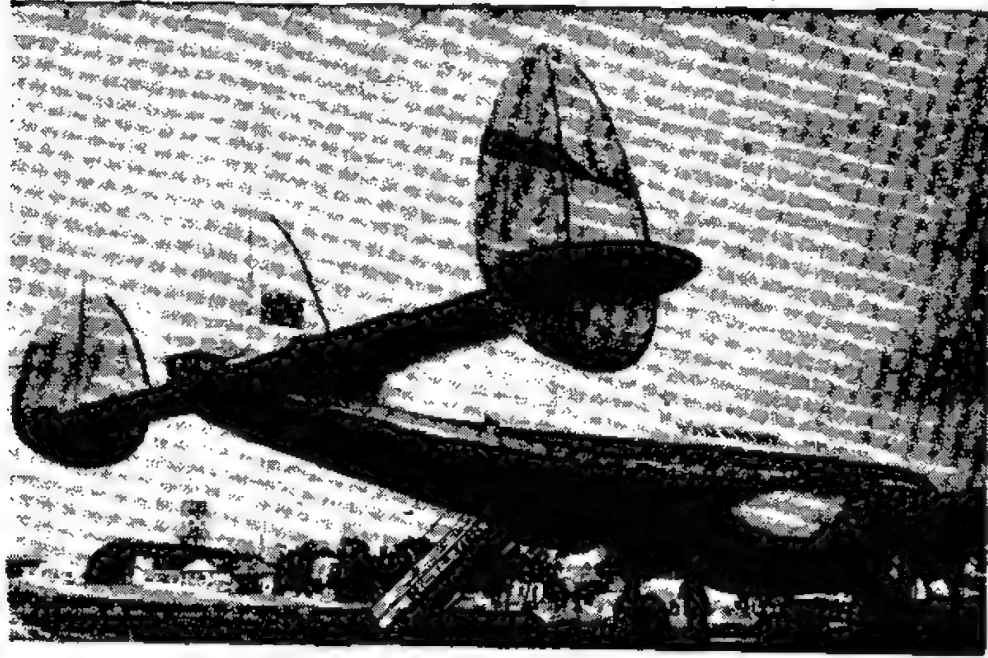
ولكن القائد الاعلى الفعلي هو قائد المشور يليه قائد المحلة (والمحلة مبدئيا هي الفيلق الذى يربط موقتا فى ناحية مضطربة ) وهو أشبه بجنرال يشرف على قواد الرحى وقواد المائة والمقدمين وشرطيى المعسكرات ورجال الامن الذين يسيرون فى ركاب الجيش ، أما قائد العسكر فهو كناية عن قائد جيش او فيلق يقوم عمليا بدور الامين العسكرى أو ضابط التموين تحت امرة كبير المحلة .

اما التدريب العسكرى فقد اتخذ عدة أطوار اولها الاسلوب المتبع فى تدريب العبيد على الجنديّة ، وما يمكن ان نسميه بالهندسة العسكرية ، فقد كان المولى اسماعيل يعمد الى اولاد العبيد فيوزعهم على البتائين والنجارين ومختلف أرباب الحرف ثم ينظم التدريب على ركوب الدواب بالتدريب ، ثم تاتى السنة الاولى للتدريب العسكرى الحقيقى فيلبس الجندي الزى العسكرى ، ثم يمارس ركوب الخيل وسوقها فى الميدان ويمارس الكر والفر «والمطاعنة والمراعاة على صهواتها» كل ذلك خلال سنوات يتدرج هؤلاء الجند بعدها فى سلك الجيش ويكتبون فى ديوان العسكر وقد بلغ عدد من مارس التدريب على هذه الطريقة 150.000 منهم ثمانون الفا موزعة على قلاع المغرب 25,000 منها فى مكناس العاصمة العسكرية كحرس للسلطان 70.000 من المحلة بمشرع الرمل وعلاوة على جيش العبيد نظم مولاي اسماعيل حماة للسواحل فتمكن من تحرير طنجة والعرائش وأصيلا والمعورة .

ويظهر ان المغرب نهج فى التدريب العسكرى مناهج مختلفة منها التركى والانجليزى والفرنسى لا سيما فى فاس والرباط وطنجة وقد ذكر «رونى لوكليز» ان المغرب أوفد بعثات عسكرية الى الخارج لتتدرب فى الفياثق الهندسية بأوربا وبالاخص فى مونبوليى على حفر الخنادق والتعليم والنسف بحيث يرجع البعض بتكوين عسكرى حقيقى وكان الجيش يمارس التمارين ويقوم بالمناورات العسكرية أربعة أيام فى الاسبوع اما فى أرياض المدينة كفاس واما داخل القلاع كما فى طنجة،

وقد استقدم المولى محمد بن عبد الله بعثة من الخبراء العسكريين الاتراك لتدريب  
رماة الجيش كما وجه مثلا 600 جندي من آيت عطة و 400 من عبيد تافيلالت الى  
طنجة للتدريب على العمليات البحرية .

وفى كل يوم اثنين كان مولاي الحسن يحضر بنفسه فى تمارين المدفعية ،  
وفى يوم الاربعاء كان يستعرض الجند لمراقبة عدده وعدده ، وهذا الاستعراض اندرج  
ضمن العوائد العسكرية بالمغرب ، كما لاحظنا ذلك منذ عهد المرابطين .



طائرة مغربية

## الفصل الحادي عشر :

### الملاحمة والقرصنة

كانت القرصنة من أعظم النكبات التي منيت بها القرون الوسطى وفترات من العصور الحديثة فقد كانت القرصنة حركة رابحة يجذب لها المسلمون والمسيحيون على السواء وسنحاول ان نحدد في هذه العجالة مدى المسؤوليات التي يتحملها الطرفان لأن كثيرا من المؤرخين نزعوا الى القاء التبعة كلها على الملاحمة الافريقية الوطنية .

لقد وصف كثير من المؤرخين البحارة المغاربة بأنهم أقبح من خاض لمحج البحار من الامم والشعوب حتى علق هذا الوهم بأذهان الكثير من الناس وتبلور في صورة حقيقة واقعية مع ان ذلك يتنافى مع تطور الاحداث قبل وبعد القرن السادس عشر الميلادي الذي يمكن ان يعتبر في نظرنا بمثابة حد فاصل في عصر العلائق الطيبة الواثقة في افريقيا وأوربا والعصر الذي غمرته الآلة واستغلال الاستعمار الناشئ . وسنرى كيف ان هذه الحقيقة تتجلى بوضوح في تاريخ القرصنة بالبحر الابيض المتوسط فقد حاول مؤرخان اثنان يجمعان بين النزعات والضلالة رسم لوحة جلية المعالم عن السمات البارزة التي طبعت نشاط القراصنة خلال العصور الوسطى وفي غضون فترة غير قصيرة من العصور الحديثة وهاذان المؤرخان هما سيسموندي صاحب كتاب تاريخ الجمهوريات الإيطالية « ولا طرى » في مصنفه حول صلاة المسيحيين بالعرب في الشمال الافريقي وقد عمد كلاهما الى دحض الافتراءات المروجة ضد العرب في شأن الفظائع المرتكبة باسم القرصنة البحرية .

فهناك ظاهرة اولى تدل وحدها على ضالة تأثير القرصنة في العلائق المغربية

المسيحية وهي ما أكده المؤرخ بالدوتشي بيركولوتي Baldicci Pergolotti

من ان المغرب كان في حقل التجارة العامة الدولة الثانية في الصفقات المتبادلة في أوربا والعالم العربي فما كانت هذه العلائق لتستقر وتنتظم لولا ضمان حفظ ولو قليل من السلامة والطمانينة فاستيناس الافارقة بالمسيحيين لم ينصرم رغم تهجمات رعايا بعض الدول الحليفة للمغرب كالجنوبيين الذين وجهوا حملة جزئية ضد طرابلس الغرب التي ظلت منصوية مدة طويلة تحت لواء ملوك مراكش وفاس



ذلك ان الاميرال الجنوى فيليب دوريا Philippe Doria الذي هزمه الاركونيون في سردينيا عمد الى الانتقام لهزيمته الشتباء من مدينة مغربية وقد أكد المؤرخ ماتيوفيلانى أنه لم يكن هنالك اى مبرر لنشوب حرب بين الجمهورية الجنوبية وطرابلس سوى ان هذه المدينة كانت غنية سهلة المأخذ فكان ذلك ابلغ مسوغ لهذا الاعتداء ففي بحبوحة الحركة التجارية الكبرى التى كانت تذكى هذا الميناء الافريقى تمكنت سبع قوارب جنوية من الرسو عام 1355 بالقرب من المراكب الاسلامية دون اثاره أدنى شبهة وفى غياهيپ الدجى تظاهر الاميرال بالابتعاد عن الشواطىء ولكنه مالبت ان فاجأ المرسى بكرة فاقتحم اسوارها وفتك بالمقاومين من رجالها واستولى عنوة على جميع مرافق المدينة وابرق الى جمهورية جنوة بانتصاره البارد وأصدره أوامره باكتساح القصور والدور التجارية والمنازل الثرية وابتزاز مافيها من ثروات فارتفعت قيمة اسلابه الى نحو المليونين من الفلورين (I) علاوة على سبعة آلاف اسير من رجال ونساء وأطفال غير ان خوف الجنوبيين من ثار الاقطار الاسلامية حدا الجمهورية الى الحكم على الاميرال وجيشه بنوع من الابعاد غير أن الاميرال عفى عنه بعد ذلك بثلاث سنوات ومع ذلك ظل عدد ضخم من الاسارى الطرابلسيين فى شوارع جنوة ينتظرون الحرية وقد ساق لاطرى هذه القصة ولاحظ أنه بو اقترف العرب ذلك بلدة مسيحية لاثار صرخات مؤرخى العرب وتنديداتهم بوحشية العرب .

وقد اسفر هذا العدوان الجنوى عن بعض الخلق لان افريقيا المسلمة التى كانت تربطها معاهدات بالجمهورية الايطالية آلهما هذا الجرح الوقح فى كرامة رعاياها وعمدت الى جمع الاكتتابات لفكك الاسرى وقد اسهم السلطان أبو عنان المرينى فى افتداء طرابلس وتحرير عدد كبير من الافارقة ويجب الاعتراف بأن الجنوبيين لم يكن من عادتهم ارتكاب مثل هذه الفظائع فرعايا جنوة الذين كانوا يعيشون فى سبتة شاركوا فى الذب عن حوزة هذه المدينة المغربية ضد الصليبيين الذين أغاروا عليهم عام 1234 ميلادية وبالرغم عن هذه الاعتداءات النادرة التى اتسمت فى الغالب بطابع خاص كانت روح التوادد الطيب تذكى العلائق بين الحكومات المسيحية والاسلامية التى حظرت القرصنة على رعاياها وسمحت بتعويض الاجانب المتضررين من ذلك حيث توجد معاهدتان امضاهما المغرب مع كل من بيرزة وجزيرة ميورقة بل ان هذه الحكومات كثيرا ماكانت تحشر سفنها للاقتصاص المشترك من القرانصة وقد نصت معاهدة .

سيبو فى فصلها التاسع عشر على أنه اذا ما أرسل الموحدون مراكبهم لمطاردة

(I) كان هذا النقد مستعملا فى القرن الثامن الهجرى فى بعض البلاد العربية كالشام وكان معروفا بفلور ( الدارس فى تاريخ المدارس للنعمى من 255 )

قرصان جنوبيين فان جمهورية جنوة يكون من واجبها تسليح سفن للمشاركة ففى هذه المطاردة ومن أجل الحيلولة دون استفادة القراصنة من أسلابهم حظرت الحكومات المذكورة بكيفية باتة بيع الغنائم والأسرى والتزمت بالمساعدة على افتكار الأسارى العاجل بل وتحريرهم بدون عوض على ان هذه الحكومات قررت فيما بينها اعدام وتترك المسيحيين أو المسلمين الذين يقرصنون ضد رعايا الدول المتحالفة . غير أن الارقاء من المسلمين ظلوا موفورى العدد فى أوربا حسب شهادة لاطرى بل كان المسيحيون الراسفون فى الانحلال بافريقيا أكثر منهم عددا يعيشون بالقرب من مواطنهم الذين يتجرون فى أمن وطمانينة فى المدن الاسلامية .

وهؤلاء الأسرى لم يكونوا كلهم ضحايا للمقرصنة بل كان منهم أسارى حرب ويجب ان نميز من الاحداث الحربية الناشئة بين دول متحاربة وأعمال التخريب القرصنية التى تجرف بكل التجار وكل الامصار من اصدقاء وخصوم ومن مواطنين وأجانب وتوجد معاهدة امضيت عام 1323 بين اراكون وتونس تعتبر القرصنة نفسها كوسيلة حربية عادية مشروعة سواء عند المسلمين أم عند المسيحيين على ان القانون الدولى لم يتمكن رغم تقدمه من استئصال ما تنطوى عليه الممارك البحرية من مظاهر الوحشية والجور ضد الملكية .

وقد تساءل المؤرخ المسيحى لاطرى عن مدى التبعة التى يتحلها كل من المسيحيين والمسلمين فى أعمال القرصنة خلال الفترة التى عقببت غزوات العرب والتى يمكن ان توسم بأنها عهد سلام وتجارة آمنة فلاحظ أن احصاء الجرائم التى كان البحر الابيض المتوسط مسرحا لها بين القرنين الحادى عشر والسادس عشر الميلاديين لا من شأنه - لو تم - ان يحمل المسيحيين قسما كبيرا جدا من مجموع عمليات النهب والتخريب البحرية التى ينسب المؤرخون ويلاتها الى الافارقة فاذا بين التاريخ ان المسيحيين كانوا أكثر من غيرهم تضررا من القرصنة الاسلامية فما ذاك الا لكون تجارتهم كانت أوسع وشواطئهم أشرح عرضة للاكتساح ولان تاريخهم العام اوضح واجلى عند مؤرخى العرب من التاريخ العربى فقد شهد المؤرخون المسيحيون بالمصائب الكبرى التى ارتكبتها قراصنتهم .

وقد أكد لاطرى من جهة أخرى أن الاعتداءات والفظائع المنسوبة للمسيحيين فى علائقهم مع الغرب كانت أبلغ مما اقترفه العرب وضرب لذلك أمثلة تصور مدى تبعة المسيحيين فى قرصنة البحر المتوسط خلال العصور الوسطى ذلك ان جزر المتوسط مثل سردينية وكورسيكا وصقلية والباليار ماكاد العرب - يزحزون عنها حتى أمست ملجأ لقراصنة أوربيين لا يقلون خطرا عن قطاع الطرق الكبرى وقد كانت أرباض مدينة كاكليارى « اوكارا المصوص » واضحة مالطة فى القرن الثالث عشر الميلادى مركزا لغزوات شنها رجل من جنوة مشهور فى تاريخ الملاحة

ولم يكن هذا الرجل سوى لص من اللصوص الحقيقيين حسب شهادة عدة مؤرخين ايطاليين وقد عاش في نفس العصر أحد القراصنة وهو هوك فير Hugues Fer الذي أصله من مرسيلية والذي الف مع اميرال صقلي شركة ائيمة اثرت على حساب تجارة البحر المتوسط بحيث أصبح بيع الرقيق من المسلمين في المدن الاوربية ظاهرة مألوفة ازدادت استعجالا مع الايام ويكفي ان نعيد الى الازهان قصة آلاف الفلاحين والملاكين العرب الذين اختطفوا من قايس عام 1284 م . وجربة عام 1310 م وطرابلس الغرب سنة 1355 وبيعوا بعد ذلك كاليهائم الحسيسة في البلاد الاوربية .

ومعلوم أن الاسطول الموحدى كان يسيطر على البحار لأنه كان أول أسطول في البحر الابيض المتوسط حسب رواية الاستاذ أندري جوليان عميد كلية الآداب بالرباط ... وقد لا حظ ابن أبي زرع (1) أحداث عبد المومن لاسطول عام 557 في جميع سواحل المغرب فأنشأ (400) قطعة منها في حلق المعمورة (المهدية) ومرساها (120) وفي طنجة وسبتة وباديس ومراسي الريف (100) قطعة ومنها في بلاد افريقية ووهران ومرسى هنين (100) قطعة ومنها ببلاد الاندلس 80 قطعة (2) وبلغ الجيش الموحدى اذ ذاك أزيد من 380.000 فارسا و 100.000 راجلا ، وفي هذا العصر كان خطر القراصنة الاوربيين نسبيا حيث كانت للملوك الموحيدين (مليشية) مختصة في قمع قرصنة المسيحيين والعرب على السواء ، ولكن الملاحة الغربية ما لبثت أن تفوقت فكان لذلك أثره السيء .

على التجارة البحرية حيث لا حظ نظري نفسه أن كثيرا من رجال الملاحة الاسبان

---

(1) الانيس المطرب بروض القرطاس ج 2 ص ( 160 - 167 )

(2) وفي عهد أبي الحسن المريني كانت المنارات ممتدة بين أسفى ومدينة الجزائر ( المسند لابن مرزوق تعريب لفي بروفنصال مجلة هيسبرس عن ثلاثة الاشهر الاولى لعام 1925 ص 61 ) وقد لاحظ روبر مونتاي في كتابه البرابر والمخزن « ص 22 » أن البحارة العرب جالوا الى القرن الثالث عشر الميلادي في شواطئ المحيط الاطلسي من طنجة الى السينغال وأكد جوستاف لوبون في كتابه حضارة العرب ( الطبعة الفرنسية ص 284 ) ان العرب ظلوا مدة طويلة قادة البحر الابيض المتوسط وأوضح ( كودار ) في كتابه وصف وتاريخ المغرب جزء 2 ص 156 أن اسطول مولاي سليمان كان يتوفر عام 1793 على نحو 47 سفينة منها عشر بوارج يقود مجموعها ستة آلاف بحار من خيرة الملاحين ، وفي عهد سيدي محمد بن عبد الله كان عدد البوارج ثلاثين من بينها خمسين مركبا وقادتها نحو الستين يعمل تحت امرتهم خمسة آلاف بحار والفان من الرماة ، وكانت من بين البوارج الحربية المغربية عام 1904 ( الحاشي ) ( وسيدى التركي ) ( والتريكي ) ( والبشير )

والإيطاليين لم يتورعوا عن اراج الثهب الفرضى فى صفقاتهم التجارية ففي عام 1200 ميلادية هاجمت سفينتان من سفن (بيزا) فى تونس ثلاثة مراكب اسلامية فى بحبوحة عهد السلام ، واغتنمنا غرة المفاجأة فأحاطتنا بالربابين وانتكح رجالهما أغراض النساء كما ابتزوا ما وقع فى أيديهم من متاع وفى نفس العهد كان القراصنة الجنويون يسعون فسادا فى جزر امبراطورية الاستانة وسواحلها وكانت الضربات المسيحية ترى خاصة على الاراضى والمراكب الاسلامية ، غير أن البحارة المسيحيين كانوا يجرفون بكل ما يعترض طريقهم دون تقية ولا تحرج سواء كان مسيحيا أو مسلما وقد أكد لاطرى أن هذه الفضائع لم يكن لها أى مبرر وطنى أو حربى على ان البحارين البندقيين الذين كانوا مشهورين باستقامتهم بين ملاحى أوروبا لم يحترموا دائما التجار الاجانب وكان السلاطين الاتراك يتدمرون غالبا من هؤلاء العداة الذين كانوا يلقون جزاءهم على يد البحارين اليونانيين وأحيانا كان الملاحون السكندنافيون يطيفون بالسواحل الاسلامية كالتجار وفى الغالب كاعداء وقرصنة ، وفى عام 1053 ميلادية اكتسحت قطعة اسكندنافية المدن الاندلسية واستولت فى مياه سردينية على مركب عربى ضخيم عمدت الى بيع أسلابه فى مهدية وطرابلس اللتين كانا اذ ذاك تحت حكم النورمانديين وقد تحدث عن ذلك بإسهاب المؤرخ ريانز Rinal فى كتابه حول غزوات السكندنافيين فى الاراضى المقدسين ولكن هذا لم يمنع بحارى الشمال = ومنهم السويدون خاصة = من التجارة المباشرة مع المسلمين الافارقة فكانت العلائق التجارية بين أوروبا والمغرب وادعة أحيانا مما دعا المؤرخ لطفى الى التأكيد بأن التجار البندقيين الذين كانوا أنزله من غيرهم طلبوا يجولون الى القرن السادس عشر الميلادى فى شواطئ افريقيا فى بحبوحة الانتظام والأمن ، وكان لمعظم الدور التجارية مراكز وعملاء على هاته الضفاف وخاصة فى طنجة ، وكيف لا وقد نصت المعاهدة المشار اليها والمؤرخة ب 1341 ميلادية على ان البفظائع المتبادلة بين القراصنة المسيحيين والمسلمين لا يمكن ان يتحمل تباعاتها البتة رجال التجارة الذين كان يتاح لهم الانتقال من بلد الى بلد فى طمانينة وسلام تحت الرعاية الملكية دون أن يزوروا وذر الآخرين .

تلك خلاصة قسط التبعة التى تحملها المسيحيون فى عمليات البحر الابيض المتوسط وسنحاول أن نرسم صورة أخرى عن تطور القرصنة الموسومة بالعربية أو الاسلامية والتى انقلبت من صفقة هدفهم الريح الى عملية أصبحت عنوانا عن رد فعل وطنى أى سياسى ضد غزوات الاسبان والبرتغاليين للاراضى الافريقية وعمليات التعذيب والتحقيق Inquisitions التى ذهب ضحيتها مئات آلاف الاندلس من المسلمين واليهود .

نعم ان القرصنة فى المياه المغربية لم تصدر دائما عن ملاحين من الاهالى بل

كانت في الغالب من فعل اخلاط المسيحيين الذين اعتنقوا الاسلام أو الاندلسيين المؤتورين الذين طردهم الاسبان من الفردوس المفقود فالتجأوا الى السواحل المغربية متحفزين للوثوب على العداة وقد وجد هؤلاء الطرداء الاندلسيون من مسلمين ويهود الاقتبال الرحب من طرف ملوك المغرب الذين اذكتهم عاطفة مزدوجة من السماحة والاربحية .

وقد رأينا موقف سلاطين المغرب في المراحل الاولى للعصور الوسطى وشنتهم الحرب شعواء ضد القراصنة مهما كانت جنسيتهم وملتهم ولم يكونوا يكتفون بالقمع بل كانوا يمنحون التعويضات عن الخسارة التي عجزوا عن تلافيها كما شهد بذلك « لاطرى » وكان أساس سياسة عبد المومن الخارجية معاقبة كل من تجرأ على الملاحه المسيحية من المسلمين وحتى في آبان الحرب كان للملاحه الوطنية وحدها الحق في مطاردة وجزر أساطيل العدو ذلك الموحدين الذين كانوا يستجيبون لمقتضيات التجارة الدولية ونواميسها والذين لقنوا أوروبا بعض مبادئها حسب شهادة اندري جوليان الزموا أنفسهم اذ ذاك حماية الحرية وضمانه الطمانينة والسلام في البحار رعيًا لمصالح تجارتهم الخارجية .

غير ان تفكك اوصال الامبراطورية الموحدية التي امتدت الى طرابلس والاندلس وانقسامها بين امراء مستقلين جعلت هؤلاء عاجزين عن تعقب القراصنة الذين تطاولوا في البحار .

وقد كتب لاطرى يقول : ( في نفس الوقت الذي كان التجار المسيحيون محفوفين بالرعاية والعناية يعاملهم سلطان المغرب وسلطانه بحسن نية استدام نهب القراصنة المسلمين في البحار بالرغم عن المعاهدات والجهود التي ما فتىء الامراء المسلمين يبذلونها ) وقد لوحظ ذلك خاصة في القرن الرابع عشر الميلادي .

غير أن هذه العصاةة الافريقية من القراصنة لم تكن كلها اسلامية الملة بل كان منها خوارج ومتشيعون يتقربون الى الله زلفى ببيع المسلمين الى النصراني وقد أكد المؤرخ التجاني ذلك في رحلته الى تونس عام 1306 م وذكر صاحب ( كتاب ( معاهدات السلام والتجارة ) نقلا عن التجاني ان هذه الفرقة من الخوارج كانت تلت تقطن جانبا من الساحل التونسي فقد تألفت في ميناء بنجاية في منتصف القرن الرابع عشر الميلادي عصاةة من الحاضيين في لجج البحار المنحدرين من الجبال المجاورة بنجاية وعنابة والمتنزهيين على غرار أهل جربة .

وبصدد مسئولية الاندلسيين في الفطائع البحرية لاحظ لاطرى أن استفحال القرصنة راجعة لانتصار الاسبان الدين قذفوا الى شواطئ المغرب باهائي الاندلس المؤتورين الذين لم ير المغرب مندوحة من ايوائهم .

نعم لقد آوى سكان السواحل المغربية القراصنة الاندلسيين اليؤساء وزاد ذلك استفحالا غارات الاسبان على المغرب والحق الشديد الذي اذكى المعسكر المسمى آنذاك ضد المسلمين مما حدا بالاب دان Père Dan الى القول بأنه لا ينبغي أن نستنكر ما يقوم به القراصنة المسيحيون ضد خصومهم في الدين وبذلك يتأكد لنا أن القرصنة المسيحية اتخذت أحيانا مظهر حملة صليبية ضد الاسلام على أن المغاربة لم يثبات لهم لاسهام عمليا في هذا العراك الزجرى لانشغالهم في الذب عن حوزة المراكز التي اقتطعها الاسبان والبرتغاليون في التراب المغربي .

وقد كان مجموع المغرب مهددا اذ ذاك من طرف غزاة الاسبان الذين حدثهم الى اكتساح افريقيا روح صليبية باركتها رسميا البابوية اذ ذاك ، ولم تكن تخلو هذه الغارات من الرغبة في الغنيمة لا سيما وأن استقرار المسيحيين في الشواطئ المغربية كما يقول الاستاذ تيراس سلسلة من غزوات النهب قام بها البرتغاليون والفرسان الاسبان ، على أن هاته الاعتداءات ضد المغرب تندرج في اطار حملة استعمارية واسعة النطاق زجت أوروبا بنفسها فيها في القرن السادس عشر الميلادي ذلك أن الاستعمار الاسباني البرتغالي لم يسعه الا أن ينجذب لثروات بلاد قريبة عن أوروبا مثل الشمال الافريقي .

ولا يمكننا أن نفصل تاريخ هاته القرصنة الموسومة بالافريقية عن حركة الغزو والتمسيح التي نسقت ( كما يقول تيراس ) تنسيقا بديعا تحت ظل البابوية . وقد أغار الاسبان على شرق البلاد بينما اكتسح البرتغاليون غربها محاولين اقرار حمايتهم على جميع المغرب ، ولكن هاته المحاولات باءت بالفشل وارتطمت بصمود تلقائي عنيف حيث هن الشعب المغربي الذي كادت تجرف به لأول مرة في تاريخه حملة الغزاة الاوربيين في كتلة متراصة لصد العدوان فخف المتطوعون من جميع أنحاء البلاد للتجمع من انقاد الوطن المهدد ، وقد لاحظ تيراس أن مجاهدي الجنوب الأقصى للمغرب شوهوا وراء أسوار سبتة متحفزين للوثوب على العدو ، فقد كان المغربي متسامحا لحد الآن ازاء الاوربيين واستوثقت علاقته مع أوروبا طوال خمسة قرون في جو من التحالف الواثق الهادي غير أن هذا المساس بسيادته وكيانه وذلك الثلم الاليم لكرامته وحرية أسفرا عن تفتق عهد جديد وسمه الحذر والحيطه بطابع خاص فانقلبت الجماهير المتسامحة المسالمة الى شعب هائج مس مساساً بليفاً في شعوره القومي فانتفض انتفاضة الموتور للذب عن حماه وحذاه ذلك الحذر الى الانطواء على نفسه لا بالنسبة للعالم المسيحي وحده بل حتى بالنسبة للامبراطورية العثمانية التي اكتسحت منذ القرن السادس عشر الميلادي الاقليميين الشرقيين للشمال الافريقي وهما الجزائر وتونس ، ذلك أن التوسع التركي كان يرمى الى الاستيلاء في شمال المغرب على بعض المراكز الاستراتيجية التي كانت تركيا ترى من

الضروري مراقبتها لتعزيز كفاحها ضد الاسبان غير أن المغرب الذي كان شديد التمسك باستقلاله لم يتوان في خوض كفاح مرير من أجل الدفاع عن كيانه ضد كل المعتدين ولو كانوا من المسلمين ، فكفاحه هذا لم يتم اذا بسمة عنصرية ولا ملية وانما كان رد فعل قوى ضد الاجنبي بصفته معتديا وهذه الفترة العصيبة في التاريخ العربى قد وافقت سقوط غرناطة آخر معقل اسلامى فى اسبانيا والفتك الذريع الجماعى بعشرات الآلاف من الاندلسيين فاضطر المغرب الذى انتزع منه قسط من ترابه الوطنى الى ايواء المهاجرين الاسبان الذين حملوا معهم الحقد وانطوت قلوبهم على ضغينة ضد العداوة ممن طردوهم من بلادهم . نعم ان المهاجرين الاندلسيين حنقوا أشد الحنق على اسبانيا التى فتكت فى ظرف 139 سنة بنحو ثلاثة ملايين من المسلمين واليهود حسب المؤرخ لورانت Lorente فى تاريخه النقدي للتعذيب باسبانيا كما أحرقوا عام 1599 أزيد من مخطوط عربى حسب رواية المؤرخ بيرسكوت Perscott فى كتابه حول فراند وايزابيلا ص 451 وهكذا انقلب الاندلسيون الذين فقدوا أموالهم وعائلاتهم من جراء الضربات المتوالية التى أنزلتها بهم باسبانيا الصليبية هبوا لياخذوا الثأر لقتلهم فاستوطنوا بعض مدن الشمال وكونوا عصابة من القراصنة هاجمت الاساطيل المسيحية فى قوة وعنف ، فتحولت القرصنة البحرية آنذاك الى كفاح وطنى وقد أبرز المؤرخ الانجليزى لينبول هذا النوع الجديد من الحرب فى الكتاب الذى صنفه حول قراصنة افريقيا وبذلك ارتسمت القرصنة كمرحلة جوهرية فى المناورات الحربية فى ذلك العصر فاقضى القرصنة الاندلسيون مضاجع الغزاة الاسبان الذين كانوا قد استقروا بقسم من الساحل الافريقى مما حدا بالاستاذ تيراس الى القول بأن سيطرة العثمانيين على سواحل الجزائر وتونس كانت نتيجة رد فعل . لعائلة من القرصنة ضد الاكتساحات الاسبانية على هاته الشواطىء كما أكد المؤرخ أندرى جوليان أن تدخل هؤلاء القراصنة العرب هو الذى ادى الى فشل سياسة اسبانيا الافريقية كما غير مجرى تاريخ القارة الافريقية .

ففى عام 1501 م نقل السيد خير الدين المعروف عند الاوربيين بباربوس وهو مسيحي الاصل من جزيرة ليسوس اليونانية - مركز عملياته الى البحر الابيض المتوسط بعد ما ساعد على اجازة سبعين ألف أندلسى الى التراب المغربى ( راجع لين بول ص 59 ) وبذلك اندرج فى سلك عصابة خير الدين عدد من المرتزقة للقيام بالقرصنة فى مياه المتوسط .

نعم كانت هناك أوكار أخرى للقرصنة فى شواطىء الاطلنطيك لا سيما فى مصب أبى رقراق تطور نشاطها مع الايام حتى أصبح رجالها معروفين بالقرصنة السللاويين وهو اسم أطلق فى الحقيقة على مجموع القراصنة المغاربة غير أن هؤلاء لهم وضع خاص يعتبر مظهرا لمشكلة استثنائية هى مشكلة الداخلين فى الاسلام من

المسيحيين في افريقيا وسنرى كيف أن هذه القضية المعقدة خلقت لبسا خطيرا في ذهن بعض المؤرخين .

وعلى أي حال فإن الاعمال التي كان يرتكبها هؤلاء القراصنة أصبحت مع الزمان مثار قلق بالنسبة للمغرب ولم يكن في وسع ملوكنا مواجهة هذه المشاكل لأن المسؤولية ترجع في الواقع الى أوروبا التي تحدث السلطات المغربية المشروعة فاعترفت لمن يسمون بالقراصنة المغاربة طوال قرنين اثنين بوجود قانوني شبه رسمي ( راجع كتاب دو كاستر في الموضوع ) بل ان بعض الدول الاوربية حالفت هؤلاء القراصنة وشجعتهم ثم شملتهم بعطفها وحمايتها مثل هولندا وانجلترا فلا يغرب عن أذهان المؤرخين ذلك العمل الغريب الذي قامت به الولايات العامة ( أي هولندا ) حيث أجبرت بحارة لوبيك ( وهي مرسى المانية تقع على 15 ك . م . من بحر البلطيق ) على اعداد مركب جديد لتسليمه الى القراصنة المغاربة بل أن الاسطول الانجليزي حمى هؤلاء القراصنة عام 1681 م . بدعوى مسالمة لهم ذلك أن وجود القراصنة بالمغرب كان يشجع دسائس ومناورات بعض الدول التي كانت تتحين الفرص للانقضاض على الشمال الافريقي وقد استغلت بعض هذه الدول القرصنة نفسها فاعتبرت وجودها خطرا على كيائها وألفت كتلة عملت على القضاء على أسطولنا الوطني الذي كان معقلا متنقلا وحصنا مكيئا للذب عن سيادة البلاد فكان ذلك من أوروبا الخطوة الاولى في سبيل القضاء على استقلال المغرب .

وقد كتب دو كاستر بحثا فيما حول تاريخ « قراصنة سلا » فأكد أن المغرب تمكن من فرض وجوده خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر الى حد أن الدول المسيحية خطبت ودلى وحالفته وأدت له جزية ثم علل ذلك بأن أسطولا قرصنيا كان يشير الرعب في الاطلنطيك فوجب أن تضمن ضد السلاويين سلامة السفن التجارية عن طريق المعاهدات والجزيات .

ومعلوم أن القرصنة في حوض أبي رقراق من آثار أوربيين أنفسهم لان ذلك كان مجهولا في المغرب حتى استقر أيام المرينيين « وكرقرصني » في المعمورة (المهدية) على ساحل الاطلنطيك فعظم شأنه واستفحل أمره وكان القائمون عليه اخلاصا من جميع الامصار فيهم من المسيحيين أكثر من المسلمين كما يقول دو كاستر .

ولكن بعد دولة الشرفاء واسترجاع المغرب لمراكزه البحرية وقع حادثان اثنان كما لهما كبير الاثر في تاريخ المغرب وهما استلاء خير الدين ورجاله على مدينة الجزائر وتحول محور التجارة الدولية من الشرق الى الغرب على أثر الاكتشافات البحرية الكبرى فقد أصبح مضيق جبل طارق المحجة التجارية الكبرى وكان من بين المدن الساحلية التي نجت من غارات البرتغاليين والاسبان سلا الواقعة على ساحل الاطلنطيك وتطوان على ضفاف المتوسط فأسميتا « مهدا » للقراصنة المغاربة ثم صارت



سلا خاصة المدينة القرصنية الرابعة - حسب دو كاستر - بعد طرابلس الغرب وتونس والجزائر (I)

وبالرغم من كون سلا (2) كانت رديئة الميناء فقد أصبحت أهم مورد للغرب حيث كانت أوروبا تروج مجموع منتجاتها المصدرة للغرب ، فقد لا حظ قنصل فرنسي (1699 أن منتجات الغرب كانت تباع بأقل من ثمنها في أوروبا نفسها نظرا لوفرة الكمية المستوردة وطوال قرن كامل انحدر الى سلا من الفردوس المفقود عدد كبير من المهاجرين على اثر سياسة القمع التي نهجتها اسبانيا اذ ذاك واستمرت هذه الهجرة المؤلمة الى عام 1610 ميلادية وهو تاريخ الطرد النهائي المقرر من طرف فلييب الثالث ولم يندمج الدخلاء الجدد مع سكان المدينة بل أنافوا عليهم عددا و ثراء وقد أنجذب لهاته المدينة التي كانت في حى أمنع من المدن الاخرى ضد ردود فعل المسيحية عدد لا يستهان به من الاندلسيين - الذين كانت تذكيتهم روح المغامرة البحرية فوجدوا في القرصنة ذريعة للاقتصاص من اسبانيا بوجه خاص ومن المسيحية عامة ، مع تنمية ثرواتهم في آن واحد ، وقد شجع السلطان عبد المالك السعدي - استقرار هاته العائلات الاندلسية لا سيما وان المدينة المعمورة التي سيق لعبد المومن الموحدى أن أقام فيها 120 قطعة حربية (3) كانت لا تزال هى وأصيل والعرائش في قبضة المسيحيين ، فكانت سلا بذلك هى الميناء المغربى الوحيد بالاطلنطيك الذى تتأتى له مراقبة مضيق جبل طارق الذى لم تكن تفصله عنه سوى خمسين

---

(I) كانت سلا ملجأ امينا وقد تنبه الى هذا الوضع الشريف الادريسي الذى وصفها بأنها منيعة من جهة البحر لا يقدر أحد من أهل المراكب على الوصول اليها من جهته ( وصف افريقيا الشمالية والصحراء المأخوذ من كتاب نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق للشريف الادريسي طبعة الجزائر عام 1957 ص 48 )

وقد ورد فى تاريخ الدولة السعدية ( طبعة 1353 ) أن مولاي عبد الملك السعدي أول من أمر بانشاء السفن فى العرائش وسلا ( ص 53 ) على أن دار الصناعة كانت موجودة فى سلا قبل ذلك .

(2) وقد لاحظ المؤرخ كايى ان هذه المرسى صارت منذ 1614 م الميناء الاسلامى الاقرب الى أوروبا فى مغرب الاطلنطيك ( تاريخ الرباط الاصغر ص 92 ) الا أن هذا الضيق الذى كان يتسم به مدخل الوادى قد نقص على اثر زلزال وقع فى لشبونة بعد وفاة المولى اسماعيل بعشرين سنة مما ساعد دخول مراكب مهمة الى المرسى ( كتاب اسماعيل الاكبر للمؤرخ ما كسانج ص 71 )

(3) يرى جاك كايي أن المقصود بسلا القرصنية هى سلا الحديثة أى الرباط ويخالفه فى ذلك دو كاستر ، على أن الادريسي نفسه أطلق اسم سلا الحديثة على سلا الحالية ( المصدر المذكور ص 48 )

مرحلة وقد لاحظ الاب دان ( Dan ) أن هذا الوضع ساعد القراصنة على الانزواء المستمر استعدادا للتحفز ضد السفن الاجنبية وكانت معرفة الاندلسيين للجهات الاسبانية ولثنايا البلاد تمكنهم من تقمص اللبوس اللائق للتربص بالعدو والانقضاض على مراكبه ، ولم يكن لهؤلاء الاندلسيين صلات طيبة بالقبائل المجاورة التي آكانت تعتبرهم ضعيفي الايمان فلم يكن بينهم والحالة هذه تأمر من أجل القرصنة المشتركة.

وقد لاحظ دوكاستر أنه ورد على سلا غب هذا العهد أترك ومسلمون حديثو عهد بالاسلام انحدروا من مختلف آفاق المتوسط وكانوا عبارة عن عصابات اتخذت اللصوصية مهنة لها فما لبث هذا الخليط من البشر ان انساق على غرار أمثاله من سكان المدن القرصنية الاخرى واذ استثنينا العقيدة الاسلامية التي مزجاة في نفوس هؤلاء فلم يكن هناك كبير لفرق بينهم وبين أهالي مدن المتوسط المسيحية وبالاخص منها ( جنوة وبيزا ولفورن و برشلونة ) . وكان الاسترقاق هو هدف الجانييين الاساسي في القرصنة ، فقد حط الجنويون من كرامتهم التجارية عند ما استرقوا المسيحيين والمسلمين على السواء وفتحوا باب الخناسة على مصراعيها على حد تعبير دوكاستر .

ففي بحبوحة القرن السابع عشر الميلادي كنت ترى في مدينة جنوة بحارين اثرياء يستخدمون عبيد افارقة ولم يتورع عن ذلك حتى كبار المسيحيين الذين كانوا يضربون المثل لم يديهم ، فقد حكى المؤرخ موبط ان أحد سكان تلمسان كان عبدا عند كردينال مدينة ارجونة ، وقد انقلب سلا على غرار اخواتها من مدن المتوسط القرصنية الى جمهورية وكانت ظاهرة عادية في التاريخ لان كبرياء الخواضر البحرية والتجارية كانت دائما تنوق الى الاستقلال الذاتي فقد انفصلت هذه المدن تدريجيا عن الدول التي كانت تابعة لها لاعتناق النظام الجمهوري ، ففي فرنسا ايضا حصلت مدن ( مرسيليا و لا روشيل و سائن مالو ) على امتيازات وحریات كانت عبارة عن استقلال ذاتي حقيقي ، موجود وكر للقراصنة داخل التراب المغربي كان يتسما اذن مع الناموس الطبيعي في ذلك العهد . وقد ادخل الاندلسيون الى سلا اللغة الاسبانية كما استعملوا القوانين والاعراف الاسبانية البرتغالية وقد لاحظ دوكاستر أنه لا أدل على ذلك من قوائم أعضاء ديوان سلا حيث اثبتت أسماء عائلات اندلسية مثل وزهراء وفتيس ، غير ان هؤلاء الاندلسيين الذين ظلوا مرتبطين نظريا بسلطين المغرب حيث كانوا يؤدون اليهم جراية خاصة طوعية لم يكونوا يرتكبون جرائمهم الا خارج المياه الاقليمية الوطنية فضل بذلك التجار المسيحيون القاطنون بسلا المغربية محفوفين بالعناية والرعاية .

وقد استمسك ملوكنا بمبدأ حرية البحار وسلامة التجارة الدولية وجعلوا ذلك فوق الاعتبار الدينية .

بل كانوا يتخرجون عن مجابهة الاعتداءات المتكررة في هذا اليدان وكانوا يفرقون بين العمل البحري - خلال الحرب وهو عمل مشروع وبين القرصنة التى لم تكن اكثر من لصوصية بحرية .

ان الافارقة لم تكن لهم هواية خاصة فى القرصنة مما جعل دوكاستر يؤكد ( ان قراصنة طرابلس الغرب وتونس والجزائر وسلا اذا اردنا ان نقتصر على المدن المهمة لم يكونوا ينبثقون على وجه العموم من بين ظهرائى اهل المغرب بل لم يكونوا ينبثقون حتى من بين الاتراك لان الذين كان يطلق عليهم هذا الاسم كان معظمهم من الدخلاء او أحفاد الدخلاء فى الاسلام ) وقد لاحظ دوكاستر ان عدد المسيحيين الذين اعتنقوا الاسلام واستقروا فى تركيا او فى المغرب (يتجاوز كل حسابان ) فمن هؤلاء خير الدين وأخوه وحسن رمضان أمير القراصنة البندقى ، والقرصنى كوبريلى Kuprili نسيب البابا بى التاسع Pie IX والقرصنى الدرکوت Drogoth الذى أسس ولاية طرابلس الغرب ، وقد استنكر الاب دان Dan

توارد اليونانيين والروس والبرتغاليين والاسبان والفلامند والامان وغيرهم ممن كانوا يملأون جوانب البلاد الافريقية ، والحقل العادى لعملية (القرصنة السلأويين) هو بحر الظلمات الذى كانوا يمحرون عبابه صعودا ونزولا حتى الجزر الخالدات الى مياه بريست بفرنسا ، وكانت هذه الجزر تحتضن عام 1595 ميلادية أزيد من ثلاثمائة عائلة افريقية بحيث كان معظم سكان مدينسى فوريطا فانتورا ولا نزاروط Lanzarote - Fuertaventura - افارقة وكانت الاولى وحدها تشتمل على ثلاث عشرة قرية افريقيا ( هسبريس مجلد 25 عام 1935 ) ، وقلما كان السلأويون يعبرون مضيق جبل طارق للدخول للبحر المتوسط حيث كان قراصنة الجزائر يتعرضون اليهم مدعين احتكار القرصنة بهاته المياه ، بل كانوا يفضلون الجولان فى لجج الاطلانطيك الى حدود المياه البريطانية بل حتى الى جزيرة نرنوف الامريكية على ان القرصنة ضد الاساطيل الاوربية كان يستغله احيانا ملاكون من بحارى الغرب فقد كان هنالك ضباط ضاربوا فى التأمينات البحرية فسلموا سفنهم الى القراصنة المغاربة وقد ضرب دوكاستر مثلا لذلك البارجة ( لارويال ) وهى من حمولة 60 طنا ومجهزة بستة مدافع ، فقد سلمت هذه برباينها والمسافرين المحمولين عليها مع أمتعتهم الى أحد قراصنة سلا يوم 16 شتنبر 1670 ميلادية ، وحكى مويط أن قبطانها الذى هو من مدينة ديبيب ( وهى مدينة فرنسية على بحر المانش ) كان قد ضمن لنفسه تأمينات كبرى على سفينته بحيث أصبح غرمها غنما كبيرا .. وقد لاحظ دوكاستر ان القراصنة كانوا يحترمون المراكب التى تحمل على ظهرها رهبا نا متوجهين لافتكاك الاسرى رغم ماكانوا يحملون معهم من أموال . وقد نظمت بعد الدول الاوربية حملات ضد قرصنية سلا ولكن مطاردتهم

وحصارهم وفنبرتهم للقراصنة ذهبت ادراج الرياح ، ذلك ان نفس هؤلاء القراصنة كانوا محميين من طرف دول غربية أخرى تحالفت مع عصابات اللصوص ايغالا في الدسيسنة ضد ملوك المغرب ، على ان بعض الاقطار الاوربية التي لم تكن تذكىها مطامع بالمغرب كانت تسالم القراصنة حفاظا على وضعها فى البحر ... وكانت دول أخرى تستخلص من علائقها مع القراصنة ارباحا طائلة حدثها الى عدم التخرج من مساندة هاته العصابات ، وقد لوحظ أنه فى أواخر العهد المرينى أصبحت مدينة انفا (I) غنية جدا مستقلة عن باقى البلاد فى نظام جمهورية صغرى سكانها قراصنة تربطهم بانجلترا والبرتغال روابط تجارية ، وقد ساعد هذا - التشجيع كلا من انفا وسلا على الايغال فى تمردهما ضد السلطة المركزية وعقد عدة معاهدات مباشرة مع أوروبا كما وقع لعدد من الدول المسيحية التى عاقدت الجزائر دون اشراف تركيا .

فانعدام اللياقة الدبلوماسية كما يسميه دوكاستر هو الذى أطال ضد ملوك المغرب أمد الحركة الثورية التى خاض غمارها هؤلاء الدخلاء من ضعفة الايمان من المسلمين تلك الحركة التى شجعتها بعض الحكومات تمهيدا لتدخلها العسكرى فى المغرب .



---

(I) تعرض الادريسي الى هاته المدينة فى النزهة فى القرن السادس الهجرى ( المصدر المذكور ص 48 ) ويظهر ان هذا الاسم استحال الى اسم الدار البيضاء فى عهد سيدي محمد بن عبد الله الذى جدد معالم فضالة وهى مدينة اشار اليها الادريسي كذلك .

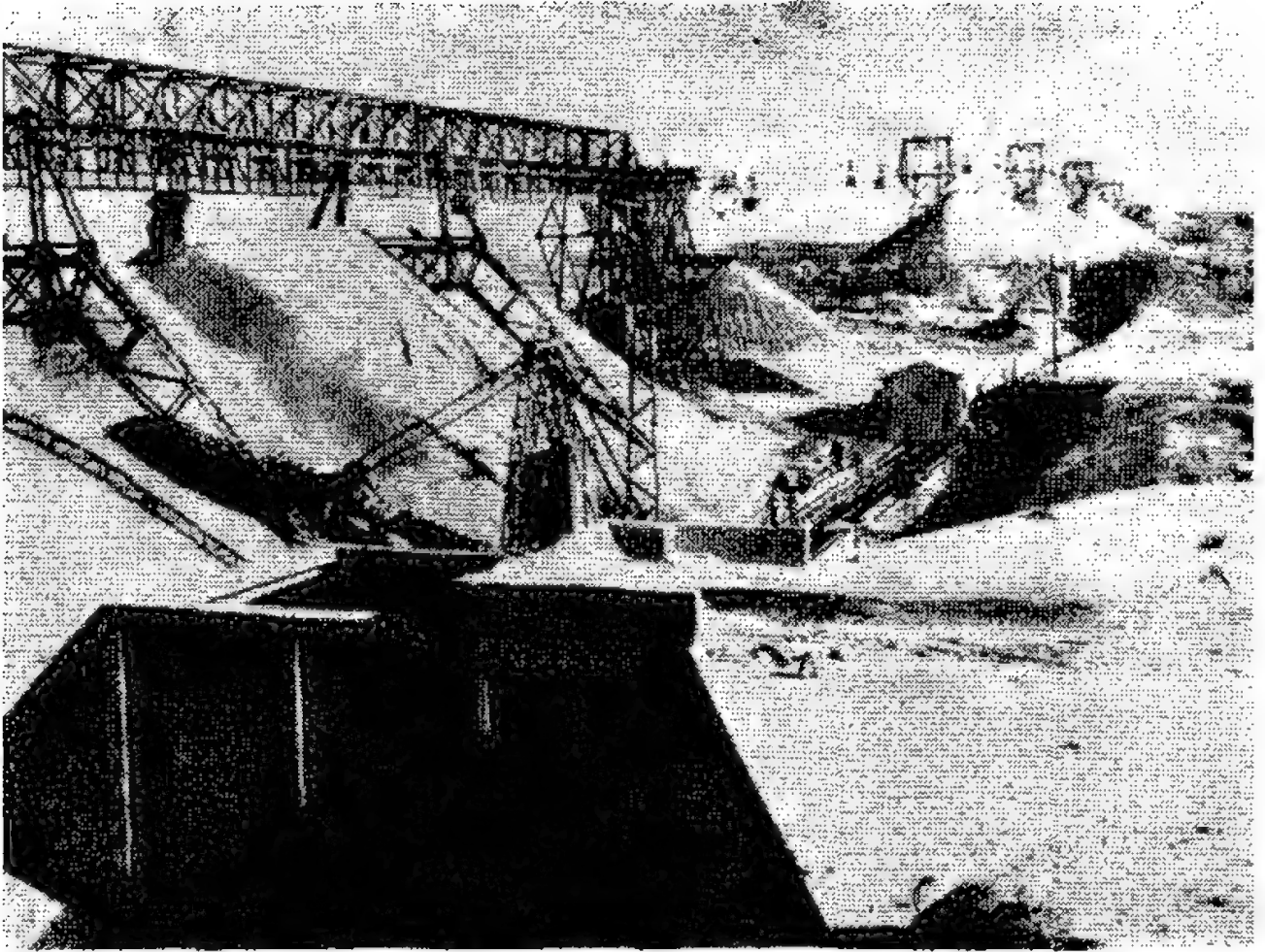
## الفصل الثاني عشر :

### حركة التحرير في العصر الحديث

عند قيام الدولة العلوية كانت أهم مراكز المغرب الساحلية في قبضة الاجانب ، فكان الانجليز يحتلون طنجة والبرتغال البريجة ( الجديدة ) واسبانيا المعمورة (مهدية) وأصيلا والعرائش بينما كان الفرنسيون يمحرون عباب البحر بسفنهم الحربية بين سواحل الريف ومصب الملوية ، وكان نجم الاستعمار يظهر رويدا رويدا في سماء تلبدت بالسحب القاتمة واكفهرت لها قلوب الامم المستضعفة .

هنالك قيض الله للمغرب المولى الرشيد المؤسس العملى للدولة العلوية الذى بادر بعد امتداد نفوذه فى الريف الى دعم حوزته بتحسين مرسى الحسيمة أو المزمة وحجرة نكور التى كانت مركز أول دولة عربية بالمغرب فى القرن الهجرى الاول وما لبثت الدولة الفتية ان ظهرت غربى البلاد وجنوبيها من الامارات الطائفية التى اقتطعتها ومزقت وحدتها ويبدأ بذلك صراع عنيف بين المغرب والانجليز الذى كانوا يساندون الحضر غيلان .

ثم جاء المولى اسماعيل فعبا جميع قوى البلاد لاتمام برنامج التحرير الوطنى فاستطاع فى ظرف عقد من السنين ان يطرد الاسبان من المعمورة والعرائش وأصيلا، والانجليز من طنجة وكابد الامرين فى حصار سبتة الذى يقال بأنه استمر 26 سنة ولم يكد يمر ربع قرن حتى أصبح المغرب موحدًا وامتدت رقعته الى مجاهل الصحراء وأخصب مناطق السودان حيث لم يسبق للمنصور السعدى نفسه ان وصل ، واعترف المغرب اجمع بأن له ملكا واحدا - كما يقول اندرى جوليان - أقام ستا وسبعون قلعة فى مختلف الانحاء تعزيزا لاستقلال البلاد ودعمًا لوحدها فاشع السلام وعمت الطمانينة وشاعت الرفاهية وعرف الشعب المغربى الوجه الحقيقى لهذه الدولة التى قامت على سنة الدين احيانة الوطن المهدد وبعث الاسلام والحنيفية السمحة وانتشر العمران حتى أحصى رحالة فرنسي مائتين وخمسين مدينة عامرة - لا تقل الواحدة منها عن ثلاثين الف نسمة ورفرف التسامح بين المتساكنين من مسلمين وغير مسلمين حتى اعترف المؤرخ كويهلير بأن المولى اسماعيل كان ( أعظم حماة الفرنسيكان ) فى العالم .



من صور المغرب الحديث

وفي غضون ذلك كان الاستعمار يوالى مؤامراته ضد المغرب عن طريق التنافس التجاري تمهيدا للاحتكار الاقتصادي ثم السياسي وكان بعض أصحاب الاطماع يهرجون في الداخل والخارج ويحولون دون انصراف الدولة الكلى الى مواصلة دعم الاستقلال في الداخل والخارج وبعد فترة من الاضطراب جلس المولى محمد بن عبد الله على أريكة العرش فاعاد الطمانينة الى البلاد وأحبط الاطماع التي حدت فرنسا الى التوسع غداة معاهدة 1667 فحرر البريجة واستأنف حصار مليلية ونشر القلاع والحصون في الساحل وبنى معقل الصويرة الاستراتيجي ومرساها فحال دون حركة التهريب والتسرب الاجنبي في الجنوب وفتح في نفس الوقت باب المبادلات مع أوروبا في حدود ما يجنيه ميزان المغرب التجاري من فوائد وكان يصرف فيض العملة الاجنبية في جلب العتاد الحربي ومواد بناء السفن من السويد وانجلترا واستورد بعثة من

الخبراء العسكريين الاتراك لتدريب رماة الجيش المغربى .

وبفضل هذه السياسة الدفاعية أمكن لمعاقل الساحل وبطارياتها أن تصد في ظرف سنة واحدة تقريبا غارتين شنهما الاسطول الفرنسى على كل من سلا والعرائش وكانت فرنسا قد دست أحد رجالها في الجنوب وهو البارون سانطو بين قبائل الشلوح يستفزها ضد العرش .

وكان المولى محمد بن عبد الله أول من شجع الحركة التحريرية الامريكية حيث سارع قبل الجميع الى الاعتراف باستقلال الولايات المتحدة .

وقد قضى مولاى اليزيد سنتين فى الكفاح من أجل تحرير سبتة وأقام ست عشرة قلعة جديدة فى نقط استراتيجية وسلاح كلا منها بعشرين مدفعا فاستتم المغرب بذلك اطارا قويا من القلاع الساحلية العتيقة .

ثم جاء المولى سليمان فحرر وجدة من قبضة الاتراك واحيط استفزات فرنسا وقد ضغط عليه نابليون للانضمام الى ماكان يسمى اذ ذاك (بكتلة الحصاربرى وهى الحركة التى هدف بها الامبراطور الفرنسى عام 1806 الى اقفال جميع الموانئ فى وجه انجلترا وقد هدد نابليون ملك المغرب فى رسائل شديدة اللهجة باكتساح افريقيا بمائتى الف جندي .

ولكن المولى سليمان قابل ذلك بالرفض والبرود ، غير أن المؤامرات الاوربية استفحلت وتمخضت فى النهاية عن اجبار السلطان على التجرد من أسطوله الذى كان يحتوى اذ ذاك على 47 قطعة مجهزة بمدافع وبسببة آلاف من البحارة الماهرين . فلم يبق للسلطان اذ ذاك لحماية الوحدة الوطنية وكيان البلاد واستقلالها سوى مدافعة الدول بعضها ببعض .

غير ان الاطماع الاوربية تبلورت بصورة خطيرة فشبت معركة ايسلى وقنبلت طنجة والصويرة واستعرت حرب تطوان وكافح المولى عبد الرحمن ضد الاطماع الاسبانية فى الجنوب كما واجه مشاكل الحدود المغربية الجزائرية مع فرنسا وولى المغرب وجهه صوب الولايات المتحدة الامريكية ففاوضها فى حلف عسكري لاحتياط مطامع أوربا وظل المغرب يجابه سلسلة من المؤامرات استمر أوراها نحو من ستين سنة كابد خلالها أربعة من الملوك العلويين الأمرين واستطاعوا الاحتفاظ فى النهاية باستقلال المغرب كما تمكنوا فى نفس الوقت من صيانة ثروة البلاد وتنميتها . ففى السنة التى تولى فيها المولى عبد الرحمن اى منذ مائة سنة بلغت رؤوس الثغنم وحدها فى المغرب 48 مليوننا .

وقام يتسع عشرة جولة فى الجنوب وحده الى أقصى التخوم لتركييز وحدة





صاحب الجلالة المغفور له محمد الخامس على محراث عصرى



التراب وحارب نوعا جديدا من الدسائس الاوربية الناتجة عن مشكلة الحماية في المغرب غداة حرب تطوان وكان الانجليز والفرنسيون والاسبان يتجادبون السلطان وكلهم يهدفون لغاية واحدة هي بسط نفوذهم على المغرب ولكن بالرغم من ذلك كله ظل المغرب محتفظا باستقلاله ووحدته تحت رعاية الدولة العلوية قرنين ونصف قرن .

ثم جاء مولاي الحسن فنفتح في المغرب روحا جديدة وجدد نظام الجيش فلما جاء مولاي عبد العزيز تزايد الضغط واتسعت شبكة التكتل الاوربي ضد المغرب فتكونت في فرنسا على الخصوص جمعية معروفة دفعت بوحارة الى الثورة ودعا رجال الاقتصاد الفرنسيون للتسرب الى البلاد من خلال الثلثة المالية كما وقع في مصر فاضطر السلطان مرة أخرى الى مدافعة الدول بعضها ببعض وطلب عقد مؤتمر الجزيرة الخضراء الذي جدد الاعتراف باستقلال البلاد ووحدته الترابية فكان ذلك خيرا مما قدمه المولى عبد العزيز قبيل الاحلاف السرية . غير ان استمرار الدسائس الاجنبية ادى الى الامر الى بسط الحماية الفرنسية التي جعل العرش والشعب حدا لها عام 1956 بعد كفاح استمر ربع قرن .

وقد واصل الشعب المغربي كفاحه من أجل استرجاع استقلاله ووحدته فشبت حرب الريف بعد نحو عقد من السنين تكالب فيها الاستعمار الفرنسي والاسباني وقد حاول جلالة الملك الشاب محمد الخامس أن ينقذ خلال هذه الفترة السوداء ما أمكن انقاده بفضل لباقتة وحسن مرونته وكان لجلالته اتصال وثيق بالحركة الوطنية وتأييدا خفي لمراميتها حتى أعلنت هذه الحركة مطالبتها بالاستقلال عام 1944 فوجدت في صاحب الجلالة الذي كان يمدحها في الحفاء سندا قويا ما لبث أن أرسلها صرخة مدوية في خطاب طنجة عام 1947 أمام الملا الدولي في المركز الذي ظل عاصمة المغرب الدبلوماسية حقبة طويلة .

وقد غامر جلالة محمد الخامس بعرشه ونفسه وأهله في سبيل قضية الوطن العليا عند ما وقف في وجه فرنسا وممثليها بالرباط جنبا الى جنب مع شعبه يطالب بالاستقلال ووحدته الكيان فلم يتورع الاستعمار عن الزج بجلالته في غياهب المنفى السحيق ومع ذلك ظل جلالته صامدا في وجه الخصم الفاشم صلبة الامراء والاميرات وكان جلالة الملك الحسن الثاني خير رفيق في هذا المنفى لوالده المقدس واحتدمت المعركة الكبرى بين الشعب والاستعمار تأييدا للاسرة المالكة في منفاها فاضطر المستعمر بعد أن حاول الصمود في وجه الشعب الشائر الى الخنوع والانصياع فرجع جلالة الملك من منفاه ظافرا حاملا لشعبه الوفي خير هدية كيملت هذا الجهد الجهاد الطويل وهي وثيقة الاستقلال .

وحتى بعد عام 1956 لم يغمض للملك الظافر خفن حيث واصل الكفاح من أجل

توطيد دعائم الاستقلال والوحدة وتحقيق الجلاء وكان جلالة الحسن الثاني المساعد  
الايمن لوالده انراحل فى هذا الجهاد الاكبر الذى مازال جلالة الملك الشاب - نصره  
الله يسجل فى حليته أروع الانتصارات سياسيا واقتصاديا وثقافيا .  
وهكذا توالى حلقات الكفاح الذى خاض غماره ملوك الدولة العلوية  
ثلاثة قرون .



صاحب الجلالة المغفور له محمد الخامس على محراث عصرى

## الفصل الثالث عشر :

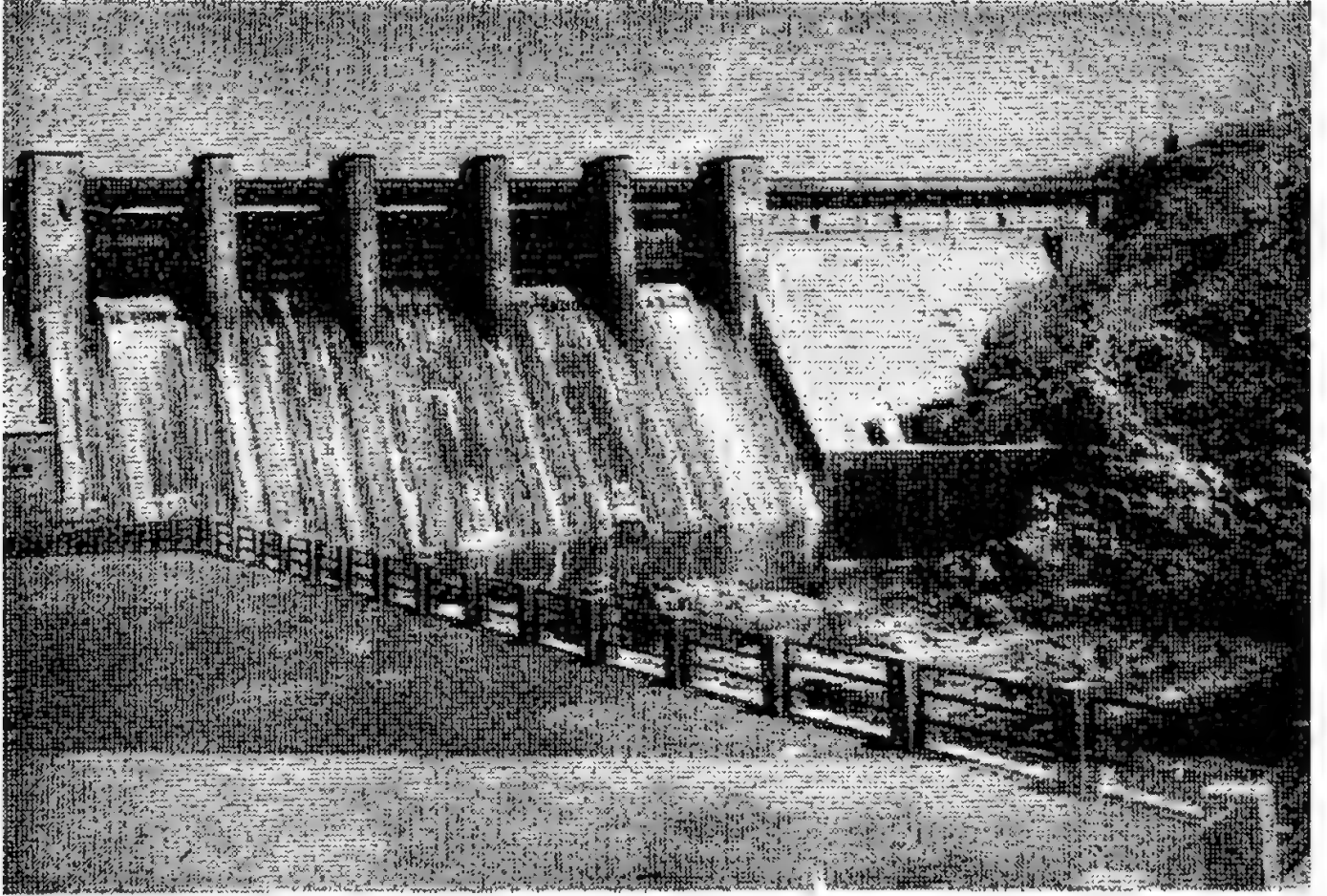
### تقاليدنا الدبلوماسية

بعد القرن الخامس الهجرى بدأت العلاقات بين افريقيا الشمالية المسلمة وأوروبا المسيحية فى شكل مبادلات تجارية أدت الرغبة فى تنظيمها وتوفير ضمانات استمرارها الى التفكير فى عقد اتفاقات ويظهر ان المعاهدات لم تكن تعدو فى البداية تبادل رسائل أو رسل يضطلعون بالمفاوضات فلا يتجاوز الاتفاق فى نهاية الامر مرحلته الشفاهية التى كانت تعتبر وحدها اساسا قانونيا ينبنى عليه فيما بعد الانجاز والتنفيذ وبدخول المقتضيات الشفوية فى حيز التنفيذ تصبح لها بحكم العادة والاطراد صبغة اصطلاحية تتسم بها العلاقات بين البلدين وتجرى عليها كقاعدة يعترف بها الطرفان بصورة عملية .

ثم تطورت العلاقات فاضطر الطرفان المتعاقدان الى تبادل وثائق رسمية تحدد فيها شروط التعامل بصورة دقيقة تكفل استمرارا نزيها للتنفيذ .

ومكاتب أوروبا مليئة بنصوص هذه المعاهدات التى يرجع أقدم ما عثر عليه منها الى عام 1157 وحدثها الى عام 1509 باستثناء وثائق العصور الحديثة التى اثبت بعضها دوكانستر فى مستنداته . والتى كتب عنها بحاثون غربيون مثل الاستاذ كاييى الذى نشر أخيرا المعاهدات الموقعة بين بعض الملوك العلويين وخاصة سيدي محمد بن عبد الله مع دول أوربية التزم بعضها بأداء جزية الى المغرب مثل السويد والدنمارك ومدينة بريم الالمانية

وأول من تصدى للكشف عن معاهدات العصور الوسطى ونشرها طرونسى وفلامينيو وبرونيتى ( Tronci, flaminio del Borgo, Brunetti ) ثم جاء امبارى ( Smari ) فنشر مجموعة أخرى عام 1763 فى مجلد ضخيم يحتوى على 74 وثيقة اصلية منها ثلاث عشرة فى نسختين بحيث يبلغ مجموع الوثائق المكتشفة 98 منها 45 محررة باللاتينية او الايطالية و 52 بالعربية غير ان هذه المستندات لا تتعلق فحسب بالمغرب العربى الذى ظل خاضعا لمعظم العصور الوسطى للملوك مراکش بل تخص حتى مصر وسوريا وبعض جزر المتوسط ولكن 41 منها مغربية



من صور المغرب الحديث

بالمعنى القديم لهذه الصفة أى تشمل مقاطعات المتوسط الممتدة من طنجة الى طرابلس الغرب وتحتوى هذه المجموعة علاوة عن 14 معاهدة ( مسألة وتجارة ) رسائل وجوازات وتوكيلات ومراسيم ملكية ( يخص عدد كبير منها القراصنة المسيحيين ) وتعليمات دبلوماسية .

ثم جاء م دوامس لاترى ( M. L. De Mas latrie ) فجمع الوثائق الدبلوماسية التى كانت خلال العصور الوسطى أساسا وقاعدة لعلائق المغرب ببعض الأمم اللاتينية مثل بيزة وفلورنسة والبندقية وجنوة الخ .

فاذا حللنا الملاحظات التى أسفرت عن وثيقة 1157 وهى أقدم ما وقع العثور عليه لاحظنا ان المعاهدة كانت تناقش ثم يقرر ( نصها ) النهائى شفويا اذ عند ما يتم التوافق على النقط الجوهرية يلخص شفاهيا ويصادق عليها بتشبيك الاصابع أو بقسم وتعتبر هذه العملية بمثابة إبرام للمعاهدة ولكن تسلم فى الغالب للسفراء رسالة تنص على انعقاد المعاهدة وتلخص كما وقع عام 1157 الضمانات الأساسية المكفولة للمسيحيين كضمان حياة الافراد وحرية معاملاتهم ويكل المتعاقدان الى العادة والسوابق الواقعية تسوية المسائل الثانوية كالتى تتصل مثلا بمقام التجار الاوربيين والجمارك والصفقات المعقودة .

واول معاهدة مكتوبة وجدت يرجع عهدها الى سنة 1174 م ولكن هناك رسالة وجهها اسقف بيزة الى السلطان الموحدى أبى يوسف الموحدى عام 1181 تشير الى معاهدة مكتوبة أبرمت مع الخليفة الموحدى .

أما فيما يخص الشكليات فان عدم الإشارة فى صلب المعاهدة الى بعضها مثل حضور الشهود ومصافحات التأكيد وترجمة النص - ليس معناه عدم اجرائها - على ان معاهدات القرن الثانى عشر الميلادى تورد أسماء المفاوضين وتعلن ان الله هو خير ضامن وهو الشهيد الوحيد فى امضاء المعاهدة وذلك رغم كون السفراء المفاوضين كانوا محاطين فى الواقع بمتترجمين وعدول وكتاب أو نساخين وقد تشير المعاهدة احيانا الى تشابك الايدى كمنوان عن إبرام العقد وكذلك الى كون المعاهدة حررت فى نسختين أصليتين أما فى القرن الثالث عشر ( لاسيما فى آخره ) فان المعاهدات بدأت تشير بوجه عام الى حضور شهود عرب ومسيحيين وتذكر اسم الكاتب والمترجم وما فتئت هذه الشكليات تتطور تدريجيا حتى رايناها تتخذ فى القرن الرابع عشر شكل مراسيم ويقع التنصيب فى صلب المعاهدة على التسلسل التاريخى للمفاوضات وتحرير الوثائق وهاكم - حسبما رواه لاطرى - صورة عن سير المفاوضة بين السفراء الاوربيين وملوك المغرب كما يتجلى ذلك من خلال المعاهدات نفسها .

ياتى السفير المسيحى الى افريقيا حاملا من اميره رسالة اعتماد تخوله حق



من صور المغرب الحديث

التفاوض فيستقبل من طرف ملك المغرب ويرفع اليه تحيات أميره وهداياته ثم يرجو منه أن يحدد له اليوم الذى يمكنه ان يبسط فيه لجلالته بصورة اوسع واتم ما جاء لاجله . وكان الاستقبال الرسمي يؤجل فى الغالب لبضعة أيام يقضيها السفير فى زيارة الوزراء والحاشية الملكية وفى اليوم المحدد يقدم السفير نسخة من المعاهدات السابقة أو مذكرة تحتوى على بنود مشروع الاتفاق الجديد فصلا فصلا ثم يحرر للسلطان تقرير حول هذا المشروع يحال على لجنة لدرس بنوده .

ونظرا لوجود اسارى مسيحيين فى المغرب كان السفير يغتنم فى الغالب فرصة وجوده بالحضرة السلطانية فيطلب افتكاك بعضهم وكانت الحكمة المغربية تفضل فى الغالب بتلبية رغبته فتبادر بتسهيل افتكاك الاسرى وقد تتحمل هى نفسها تكاليف الفداء ثم تفتح المحادثات فيما بعد وكانت تجرى فى الغالب بالقصر أو فى منزل أحد كبار الدولة وتنص المعاهدة عادة على نفس المحل السدى انعقدت فيه الجلسات وأبرم فيه العقد وهو اما قاعة الاستقبالات او أحد اجنحة الحدائق الملكية أو منزل أحد الوزراء أو احد اعضاء لجنة المفاوضة كمدير الجمارك المغربية.

وفى جلسات المفاوضة كان أعضاء الوفدين العربى والاوروبى يدلون بنقط ومذكرات أى بسلسلة من البنود تشكل مشروعا تمهيدا يتخذ أساسا للمداولات وعند ما يتم الاتفاق بين الطرفين على أسس المعاهدة الجديدة تحرر نسخة من المشروع باللغة العربية أولا فى أغلب الاحيان وبعد تحرير الاصل العربى تنعقد جلسة رسمية لترجمته للغة العربية ثم امضاء النسخ وطبعها بالخاتم الملكى .

وكانت هذه المرحلة الاخيرة تجرى فى أبهة ضمن محفل غفير فى نفس المكان الذى انعقدت فيه جلسات المؤتمر ويستدعى عادة للمشاركة فى هذا الحفل بجانب المفوضين وترجمانهم وعدولهم وقنصل الدولة المتعاقدة والقناصل الاجانب أو بعض اعيان تجار الجاليات الاوربية بالمغرب ورجال الدين المسيحيين القاطنين بالبلدة وبعض الشهود من المواطنين المسلمين وحتى قواد المليشيات المسيحية - المنخرطة فى الجيش المغربى - الذين طالما أمضوا المعاهدات كشهود .

تلك هى المراحل التى كانت تسبق عادة امضاء المعاهدات بين المغاربة والاوربيين والتي وقع النص عليها فى بروتوكولات الموائيق الدبلوماسية على أن هناك جملة من التقاليد الاستثنائية التى كان المغرب يجربها على بعض الدول دون الاخرى .

كل ذلك يقع اذا ما تم اجراء المفاوضات وتوقيع المعاهدات فى المغرب نفسه أما اذا حرر نص المعاهدة فى اسبانيا مثلا مع سفير مغربى فان طريقة العمل تختصر وقد علل بعض المؤرخين الغربيين هذا الاقتضاب فى الشكليات بوفرة العلاقات بين الاسبان والعرب وانتشار اللغتين العربية والاسبانية بين الشعبين فاذا ما تم الاتفاق بين





منظر من آثار لوكسوس وهى اول مدينة بناها القرطاجيون بالمغرب منذ  
ثلاثة آلاف عام



مظهر من بقايا آثار شالة



السفير ووزراء الامير الاسباني حول أسس المعاهدة تتكفل الدبلوماسية الاسبانية نفسها بتحرير نسختين للمعاهدة بالاسبانية يكتبان حتما في نفس الوثيقة كل في جهة يفصلها هامش قد سجلت فيه مستندات أخرى ويوقع الوزير الاسباني باسم أميره على النصين ثم ترسل الوثيقة الى المغرب ليذليها السلطان بخاتمه وامضائه فيحتفظ بنسخة ويعيد الاخرى وكانت هذه الطريقة تتبع في المغرب الادنى أكثر من غيره . وفي بعض الاحيان كان النص الاسباني المزدوج يسجل في نسختين منفصلتين يختتمهما الامير الاسباني بطابعه أولا ثم يوجهان الى المغرب بعد ذلك لتلقى الختم السلطاني ويتم العقد بتبادل وثيقتين أو رسالتين مختومتين بنفس الطابع فيحتفظ الامير المسيحي بالنص الذي يحمل طابع السلطان بينما يحتفظ هذا بالنص المختوم من طرف زميله الاسباني .

والمعاهدة المبرمة عام 1274 م بين ملك ارغون جاك الاول وبين يعقوب المريني انموذج لهذه الطريقة الاخيرة .

وتوجد نصوص أخرى حررت بطريقة أخرى منها المعاهدة المبرمة بتاريخ 13 ابريل 1339 في تلمسان بين جاك الثاني ملك جزيرة ميورقة وابي الحسن المريني ملك المغرب وكذلك المعاهدة التي أبرمت بين أبي عنان وأمير ارغونة بطبرس الرابع عام 1357 وكان نص المعاهدة الاولى ما زال محفوظا في مكتبة باريس الملكية أواخر القرن الماضي وتتلخص هذه الطريقة الثالثة في تحرير نص المعاهدة على ورقتين تطويان على طولهما ويسجل النص الاسباني على اليمين بمحضر السفير المغربي ويذيل الامير الاسباني كلا النصين بخاتمه ثم تسلم الوثيقتان احدهما الى السفير المغربي والاخرى الى مبعوث اسباني يتوجهان معا الى المغرب لتحرير النص العربي على عمود اليسار ثم تديله بامضاء السلطان وخاتمه ويعود السفير المسيحي الى بلده حاملا نص المعاهدة وفي معاهدة تلمسان المحفوظ نصها بباريس كتب النص الاسباني في اليسار وذيل كذلك بامضاءات المتفاوضين والشهود من الطرفين .

وهناك طراز آخر من المعاهدات يحتوي على فصول وبنود ( منمرة ) ويرجع عهده للقرن الخامس عشر الميلادي غير ان هذا النوع لم يتركز الا في القرن السادس عشر ويقولون بان فصل البنود بعضها عن بعض وترتيبها كان اقل عند المغاربة منه عند الاوربيين ولكنهم يعترفون بانه اقدم عند اولئك ( والترقيم ) عند المغاربة كان يجري بالحروف لا بالارقام كما يلاحظ في نص معاهدة عام 1358 المبرمة بين المغرب وجمهورية بيزة وقد لاحظوا ان ( الترقيم ) لم يكن يوجد احيانا في النص العربي .

ويستنتج من مقابلة بعض النصوص العربية للمعاهدات مع النصوص المحررة بالاسبانية أو الايطالية أو اللاتينية وجود خلاف في كثير من الوجوه قد يشوه احيانا قوام المعاهدة وهذه الملاحظة قد أبداه مستشرقون أمثال ساسي ورينو وأماري الذين

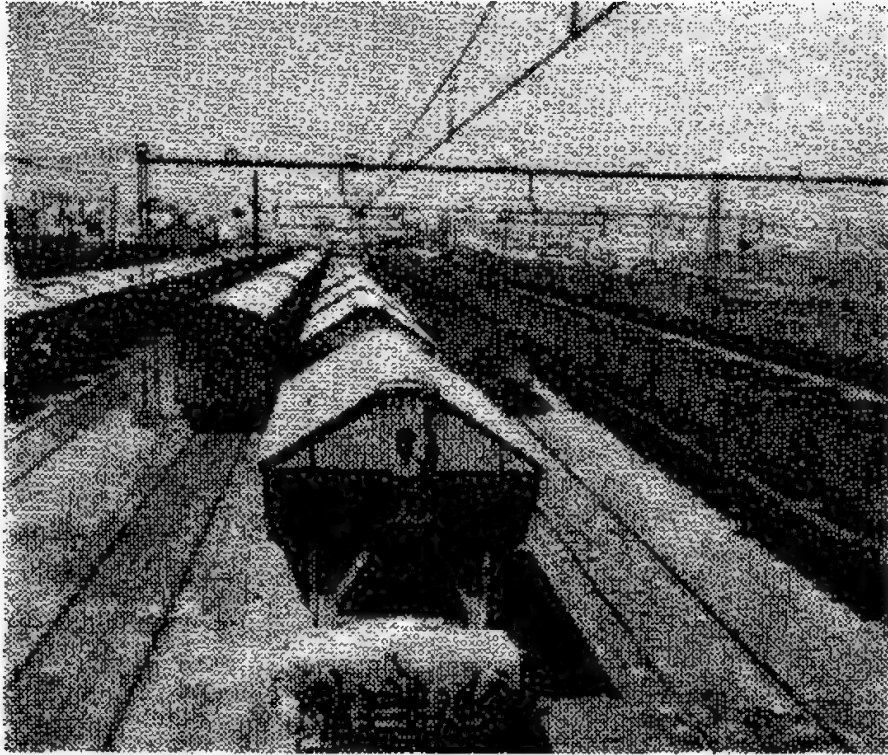


مطرفة من حديد بازيلال بالاطلس الاوسط

نهبوا على اغفال النص اللاتيني لبينود بكاملها وتحوير اخرى تحويرا يقلص من مداها  
عذا علاوة على الاقتضاب والغموض وتحريف الاعلام . ولا شك ان ذلك يقلل من قيمة  
النصوص كوثائق تاريخية وقد ادلى م . لاطرى بأمثلة من هذه التحريفات الخطيرة  
التي مست بجوهر المعاهدة منها ما وقع عام 1398 حيث اضيف الى النص اللاتيني  
والايطالى للمعاهدة المضادة في تونس فصل لا وجود له في النص العربى الذى يعتبر  
هو النص الرسمى لانه هو الاصل الذى ترجم منه النص المسيحى ووجه الخطورة فى  
هذا الفصل المزور أنه يحمل المسؤولية الجنائية للقناصل عند ما يرتكب مواطنوهم  
اعتداء ما ضد المغاربة مع ان ملوك المغرب العربى عارضوا دائما مبدأ اتخاذ القناصل  
رهائن للاقتصاص منهم عند الاقتضاء .

تلك صورة مقتضبة عن الشكايات التى كان العمل جاريا بها فى المفاوضات  
والامضاء على العقود الدبلوماسية .

ونستخلص من هذا العرض ظواهر شتى ابرزها الروح القانونية الدولية التى تشبع  
بها ملوك المغرب منذ ما يقرب من الف عام ومدى حرص هؤلاء الملوك على ضمان احترام  
السيادة المغربية حتى فى مظاهرها البسيطة وسعيهم الحثيث لتطوير علائق مسالمة  
مع اكثر ما يمكن من الدول رغم ما كان يسود العصور الوسطى من حروب اساسها  
اختلاف العقيدة والانانية العنصرية والمطامع المادية .



السكك الحديدية



من صور الأزياء المغربية ( أحد الشيوخ )



امراة مغربية بدوية

# فهرس

## القسم الأول

### المظهر الحضاري الاجتماعي

#### صحيفة

5	الفصل الاول : المرأة المغربية
32	الفصل الثاني : رسالة الاوقاف الاسلامية
40	الفصل الثالث : الاسلام فى المجتمع البربرى
45	الفصل الرابع : الحالة المدنية
47	الفصل الخامس : سكان المغرب

## القسم الثاني

### المظهر الحضاري الاقتصادي

53	الفصل السادس : الاقتصاد فى ألف عام
67	الفصل السابع : الصناعة التقليدية
86	الفصل الثامن : العملة المغربية
93	الفصل التاسع تطور النظام الجبائى

## القسم الثالث

### المظهر الحضاري العسكري والدبلوماسي

99	الفصل العاشر : الجيش المغربى
III	الفصل الحادى عشر : الملاحة والقرصنة
124	الفصل الثانى عشر : حركة التحرير فى العصر الحديث
130	الفصل الثالث عشر : تقاليدنا الدبلوماسية



مطابع دار الكتاب  
الدار البيضاء